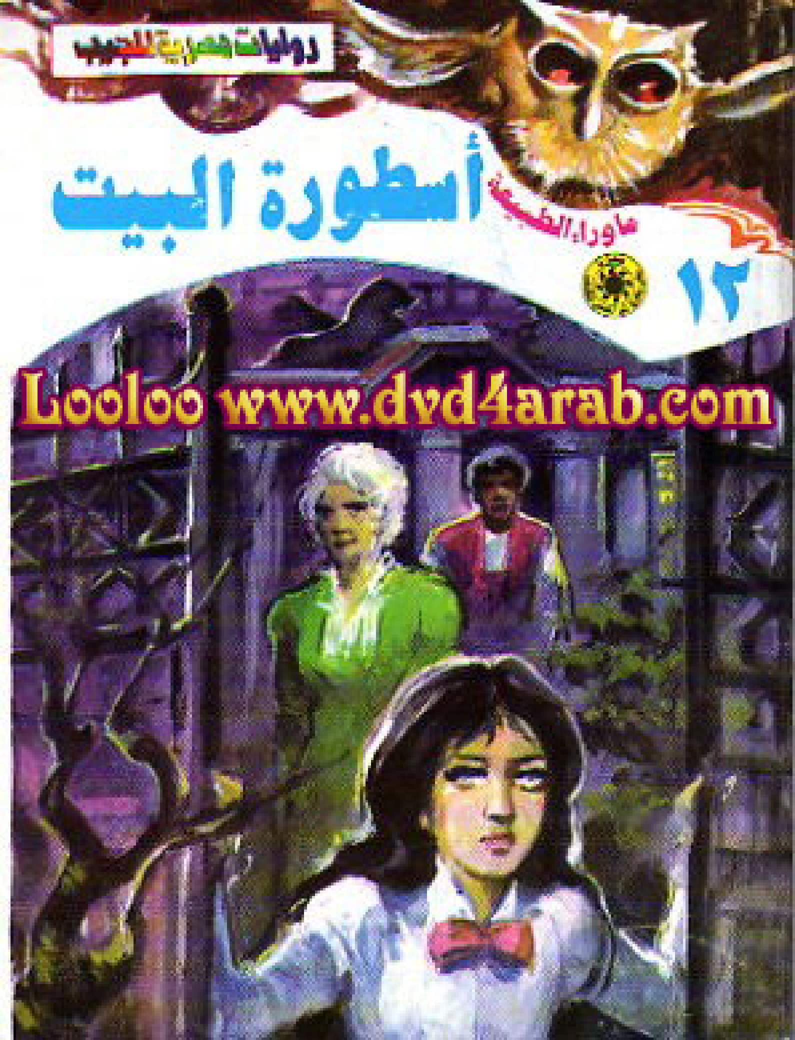

روايات مصرية للجيب
أسطورة البيت
ما وراء الطبيعة
١٢
Looloo www.dvd4arab.com

مقــدمة

مرحبًا ...

الدكتور (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم المتقاعد وهاوى الأشباح يتحدث إليكم ..

أنا الشيخ الوحيد المتهالك الذى يقضى أيامه الأخيرة مسترجعًا ما كان فى شبابه من أحداث ، والذى قضى ليلته جوار مومياء (دراكيولا) ، وصارع (النساس) فى الصحراء ، وطاردته لعنة الفرعون (أخيروم) ..

لقد ولى أحبائى جميعًا .. وها هى ذى صفارة القطار تعلمنى أنهم جميعًا قد ركبوا وأن علىّ أن ألحق بهم إلى عالم آخر ..

لكنى أتوسل لناظر المحطة ــ قلبى المتهالك ــ أن يتركنى بضعة أعوام أخرى تكفى كى أفرغ ما بجعبتى من حكايات ..

لكنه يقول لى فى تململ وهو يجذب كمى :

ــ « لكن حكاياتك هى فى النهاية مجرد حكايات .. ليست نظريات علمية ولا قطوف حكمة فتتركها للقادمين من بعدك .. » .

— « لكنها مسلية أيها الرجل الطيب .. مسلية ! .. وأقسم على هذا .. » .

عندئذ أراه يفكر .. ثم يعقد ذراعيه على صدره ويغمغم :

— « إذن احك قصة مسلية أخرى .. ولكن بسرعة » .

ويهز إصبعه فى وجهى محذراً :

— « قلت لك أن تكون مسلية .. هه ؟ .. لقد أنذرتك .. ! » .

فأهلل .. وأكاد ألثم يديه لولا تصلب عظام ظهرى الذى يعوقنى عن الانحناء .. ، وأبدأ ـ على عجل ـ فى سرد قصة أخرى ..

لقد وعدتكم أن أستكمل قصة (هن ـ تشو ـ كان) .. لكننى لم أحدد متى .. لذا دعونا نصغ لقصة البيت هذه المرة ..

البيت .. يعرف كل شىء .. البيت يذكر كل شىء ..

البيت ينتظرنا بعد كل هذه الأعوام ..

وبوابته الصدئة مفتوحة من أجلنا ..

فهل ندخل ؟ ....

١ ـ دورى يا أيام ..

العام ١٩٦٧ ...

هل كان ذلك قبل أم بعد الحرب ؟.. لا أذكر .. لكننى أذكر أننى كنت أحيا حياة باسمة هادئة وقد استقرت أمورى أخيراً ..

فلابد ـ إذن ـ أن هذه القصة وقعت فى الشهور الخمس الأولى من العام ..

كنت ـ كما قلت لكم آنفا ـ قد خرجت لتوى من مواجهتى الشنيعة مع حارس مومياء الفرعون (آخيروم) .. (هل تذكرون قصة البللورات والرجل الغريب الذى يتعقب (هويدا) والعسل والبصل ؟) ..

وكان ذلك الشعور العجيب المنعش يتسرب إلى روحى دون أن أدرى من أية ثقوب يتسرب .. !

إنه الربيع ... !

أى ضير فى أن يحب المرء خطيبته بجنون ؟ .. ، أن يقضى الساعات يحلم بتعبيرات وجهها وهى تضحك .. تقطب .. تهتم .. تحنو .. تتفلسف .. ، وأن يسهر الليل محاولا فهم ما كانت تريد قوله حين أخبرته بكذا .. وكذا .. ، ثم ذلك الشعور الممض الغريب : محاولة

استرجاع ملامحها فى ذهنك دون جدوى .. كأنك لا بد أن تراها لتذكر وجهها ! ..

والشعور الممضّ الآخر : الشعور بأنها (ستنفد) !.. الجنون المسعور الذى يعصف باتزانك حين تدرك أنها فى هذه الساعات تضحك وتقول كلامًا كثيرًا ليس لك نصيب فيه ، كأن مخزونها من النضارة والرقة سينتهى بهذه الطريقة قبل أن تتزوجا ..

عندئذ تنهض ـ كالملسوع ـ إلى الهاتف وتطلب الرقم الحبيب ..

وتنتظر فى لهفة أن تسمع صوتها يتساءل ناعسًا عما هنالك ..

لو كنت تعرف وقتها أغنية (ستيفى واندر) : « لقد اتصلت لمجرد أن أقول إننى أحبك ! » : لو كنت تعرفها وقتها لأنشدتها عبر أسلاك الهاتف .. لكنك لم تكن تعرفها .. ولهذا كنت تختلق أعذارًا على غرار : هل نسيت مفاتيحى عندك ؟ .. هل زال الصداع عن رأس والدتك ؟ .. ألخ ..

كنت تشعر أنك سخيف ..

لكنه الشوق المجنون .. والوحدة الأليمة ، كالمذءوب الذى يتحول إلى ذئب عندما يكتمل القمر .. تتحول أنت إلى

كائن رومانسى أبله كلما اشتممت رائحة زهر البرتقال تحمله أنسام الربيع ..

أصلع الرأس .. نحيل كالبعوضة .. تحشّ صدره أبخرة التبغ وآلام الذبحة الصدرية .. لكنك ... لكنك ... لكنك ـ ويا خجلى منك يا د. (رفعت) ـ تحب !

* * *

كنتُ سعيدًا كطفل نسيه أبواه فى مخزن حلوى .. أو أسد وسط قطيع من الحمير الوحشية .. أو خنزير برى فى بركة وحل .. أو أية سعادة تبدو قريبة لذهنك ..

وفى الكلية أصيب طلبتى وزملائى بالرعب من هذه التغيرات التى طرأت على شخصى الكئيب المتشائم ..

ثم كانوا يفكرون هنيهة .. ويضحكون فى خبث :

ـ « آها .. ! .. إنه الحب .. إن العجوز (رفعت إسماعيل) يحب .. ! » .

فإذا ما أشعلت سيجارة صاحوا فى عتاب :

ـ « وهى .. ؟ .. ما رأيها فى هذه العادة السمجة ؟ »

وإذا ما أطلقتُ سبّة عابرة .. هتفوا :

ـ « ماذا ؟ .. ألا تخجل ؟ .. ماذا لو انزلق لسانك أمامها ؟ ! » .

أما شرود ذهنى فدليل جازم على فرط هيامى ...

وذات مرة سألنى الدكتور (رأفت) زميلى فى حيرة :

ـ « تبدل موقفك مائة وثمانين درجة .. ! » .

ـ « أى موقف ؟ » .

ـ « كنت تتزوج لمجرد أنك لا تجد شيئاً آخر تفعله .. فماذا حدث كى يدعوك للتحمس ؟ .. ماذا قد جدّ » .

نظرت له فى شرود ..

ماذا قد جد ؟ .. ياله من سؤال ! ..

أنا نفسى لا أعرف السبب .. إننا غير مسئولين عن مرضنا ولا عن عواطفنا .. فجأة نصحو من النوم لنجد أننا نهيم بحب فلان أو لا نطيق فلاناً .. فما هو المنطق ؟..

ربما هو التعود .. وربما هو شعور بالذنب بسبب ما عرضتها له فى قصة الفرعون إياها .. وربما هو الامتزاج المشترك بيننا بعد المعاناة التى عشناها سوياً .. وربما هو أنها لم تكن سيئة إلى هذا الحد ...

لا أدرى .. ومن أنا كى أدرى ؟ ..

فقط سيطرت هذه الفتاة على كل مليمتر مربع من عالمى ..

والأغرب هنا هو أننى لم أنس (ماجى) قط .. لقد ظلت واقفة فوق أعلى ناطحة سحاب من مدينة ذكرياتى ، وكانت تتوهج وتتألق كعهدى بها..

كل ما هنالك هو أن (هويدا) بدأت تكتسب المزيد من صفات (ماجى) يوماً بعد يوم ! .. ، وحتى ضحكتها كنت أرى فيها شبح ضحكة (ماجى) الحنون المشربة بروح الدعابة ..

غريب هو ذلك العالم المتشابك الكامن تحت فروة رأسى .. وأبداً لن أتمكن من فهم ذلك الكائن الذى هو أنا ..

* * *

ـ « ما سر هذه الأرقام الفلكية فى فاتورة التليفون؟ » .

ـ « إن مكالماتك الخارجية كثيرة جداً يا دكتور .. كثيرة جداً ..! » .

* * *

ـ « إن هذه السيارة بالوعة بنزين ... » .

ـ « لابد أن زياراتك للإسكندرية لم تعد أسبوعية .. بل زادت كثيراً ! » .

* * *

ـ « إن رسم قلبك لا بأس به يا دكتور رفعت .. إن حالة قلبك لن تعوقك عن الزواج ولكن لا تنس ... التدخين هو مسامير نعشك .. » .

ـ « إذن هو ليس نعشاً .. بل دبابة ! » .

* * *

— « ولكن .. متى تغير هذا المنظار الذى يجعلك تبدو كالمعتوهين ؟ » .

— « أنا أمقت التغيير يا (عزت) .. أمقته ! » .

— « الزواج هو أكبر تغيير .. ومن يجرؤ عليه يجرؤ على كل شىء آخر .. » .

* * *

— « (رفعت) .. ! .. إنك تزداد رقة وهذا لا يروق لى ! » .

قالتها (هويدا) وأنا أسير معها فى (محطة الرمل) بلا هدف معين .. كانت ترتدى فستانًا أبيض من موضات الستينات الساحرة (كانت كل فتاة تبدو كأنها بطلة فيلم من الأفلام الرومانسية ، وكل رجل يبدو كأنه فارس أحلام) .. بينما ارتديت أنا قميصًا ذا أكمام طويلة ..

قلت لها وأنا أشعل سيجارة أمام نظراتها المتوعدة :

— « ماذا تعنين ؟ .. كنت أظن عصبيتى كذلك لا تناسبك .. » .

— « نعم ولكن ... » .

وبللت شفتيها بطرف لسانها .. ثم أردفت فى حيرة :

— « .. لا أدرى .. » .

لكننى كنت أفهم ما تعنيه .. هى لا تملك الفصاحة اللغوية التى تمكنها من أن تقول لى إنها تعوّدت على توترى وعصبيتى وآرائى الساخرة .. ، وهذه الرقة المبالغ فيها تجعلها غير مستريحة كأنها مع شخص آخر ..

حمقاء هذه الفتاة ، لكن حماقتها محببة تلذّ للسامعين .. إن الأطفال ليسوا فلاسفة متعمقين لكن كل الفلاسفة يحبون محاورة الأطفال ، لأنهم يستمتعون بكل هذا الطهر والنقاء والبعد عن التعقيد ..

قالت (هويدا) وهى تجرع زجاجة المياه الغازية التى ابتعتها لها :

— « يبدو أنك لم تجد أشباحًا فى الفترة الأخيرة .. » .

— « وهل هذا شىء يدعو للشكوى ؟.. » .

— « وكففت عن الأسفار .. » .

— « إنه الإفلاس ..! » .

ابتسمتُ فى غموض وهى ترمق أسراب طالبات المدارس يهرعن للحاق بالترام .. وهمست بعد فترة تردد :

— « إنك تعيش حياة طبيعية هذه الأيام .. طبيعية أكثر من اللازم .. وهأنتذا رجل كالآخرين تذهب لـ (دمياط)

بحثاً عن الأثاث .. ونتشاجر مع السباكين .. و ... و ... » .

— « لطالما تمنيت أن أصير كالآخرين .. » .

ضحكت في خجل وناولتني زجاجة المياه الغازية لأعيدها للبائع .. وهتفت :

— « أخي .. يخيل لي أن هذا هو نوع من الهدوء الذي يسبق العاصفة .. أعتقد — وأرجو أن يخيب ظني — أنك مقبل على مصيبة .. ! » .

— « فأل الله ولا فألك ! » .

— « سامحني .. لكني واثقة من ذلك .. إن هذا الكابوس ... » .

— « كابوس؟! » .

— « نعم .. كابوس أراه في كل ليلة .. » .

هاهي ذي تلك الحمقاء تحسب — كأكثر الناس — أي كابوس يزورها بسبب أكلها الثوم في العشاء ؛ تحسبه رؤيا صادقة شفافة قادرة على التنبؤ .. وماذا رأيت يا (هويدا) هانم بخصوص في هذا الكابوس المزعوم..؟

— « رأيتك ممزقاً إلى أشلاء .. ! » .

— « لا بأس .. لقد رأيت نفسي في كوابيس أسوأ .. » .

— « .. وكانت الذئاب تنهش جثتك ... ! » .

— « هذا هو التجديد الحق ..! » .

اتسعت عيناها رعباً ووضعت كفها على ساعدي .. وفي توسل همست :

— « اسخر مني كما تشاء ولكن خذ الحذر .. أرجوك ... » .

كدت أشكرها على لطفها لولا أنها أردفت وهي تدفعني للسير :

— « ماذا سيقول الناس عني إذا مالاقى خطيبي الثاني حتفه ؟ .. لا أريد أن يتهمني الناس بالنحس ! .. » .

....

لم أرد عليها لأنني كنت أرمق في شرود فتاة صغيرة تقف في أحد مداخل البنايات .. كانت ترتدي قميص نوم أبيض طويلاً وشعرها الأسود ينساب على كتفيها ...

ذكرني منظرها بشيء ما لا أذكر ما هو بالضبط ...

* * *

٢ – الماضى يصحو ..

أنهيت جولتى فى المعامل مع تلميذى ممتقع الوجه أحمر الأذنين – نسيت اسمه للأسف – الذى يحاول أن يدارى أغلاطه قدر الإمكان ، لكنى كنت أعرف جيدًا مواضع هذه الأغلاط لأننى كنت أرتكبها فى سنّه .. !

بالطبع لم يفحص براز مريضة فقر الدم بحثًا عن دم مهضوم .. ناسيًا – أو متناسيًا – أن سبب فقد الدم قد يكون نزفًا بالقناة الهضمية .. ، وبالطبع لم يفحص نخاع الطفل المصاب بنزف الجلد ناسيًا – أو متناسيًا – أن سرطان الدم احتمال وارد ...

كانت أذنا الفتى على وشك الانفجار من الدماء المحتشدة فيهما حين انتهى لومى له .. وأنهيت جولتى عائدًا لمكتبى ...

وجلست أرشف القهوة وأتصفح الرسائل التى وصلتنى ...

وكانت – كالعادة – رسائل من أشخاص يطلبون مالاً .. أو يتوعدوننى بخراب بيتى .. أو من شركات أدوية تعتذر

عن عدم قدرتها على تحقيق شىء طلبته منها ونسيت كنهه تمامًا .. ، ثمة خطاب من (جوستاف نيكولسكو) الصحفى الرومانى يتحدث عن المذءوبين ويقول إن هناك قرى أخرى يبدو أنها تعانى منهم حقًا ، وخطاب من (هارى شلدون) يذكرنى برحلة (جامايكا) الكريهة .. ويدعونى إلى زيارة (تاهيتى) لتعرف المزيد من أسرار الـ (فودو) ...

لقد مات الماضى يا رفاق .. ألن تعوا ذلك أبدًا ؟..

كان هناك خطاب أخير لم أدر من هو مرسله .. لكن خاتم المظروف كان من (المنصورة) .. (المنصورة) أول حب فى حياتى ..

بيد مرتجفة فتحت المظروف فوجدت هذه السطور مكتوبة بخط أنيق متسق .. كأنه خط امرأة أو خط رجل يملك أصابع امرأة ...

« الأخ العزيز د. (رفعت) :

تحية طيبة .. وبعد ...

أسعدنى كثيرًا أن أقرأ سطورًا عنك فى إحدى المجلات الأجنبية التى يملكها زوجى . وقد تعرفت الصورة فورًا . وقد تذكرت الماضى وحياتك هنا فى (المنصورة) مع خالك رحمه الله .



بعد مرفقة فتحت المظروف فوجدت هذه السطور مكتوبة بخط أنيق منسق ..

وكلنتم خير (جيرانا) لنا (هكـذا فى الخطـاب) ولم (نرى) منكم إلا كل خير . هناك مشكلة فى حياتنـا يا د. (رفعت) أعتقد أنها تمسك بشكل أو بآخر وأرجو أن تلبى دعوة زوجى (محمد أيوب) وهو مهندس معمارى للحضور الى (المنصورة) للقائنا ومعرفـة المشكلة .

أما لماذا لم (نأتى) نحن فلأننا نعرف أنك غير متزوج وخفيف الحركة ، ثم أن المشكلة عندنا هنا وليست عندك .

سلامى للأخوة (عماد) و (مدحت) و (عبير) إذا كنت تراهم . وعلى فكرة عنوانى سهل جداً وهو (......) لكن اتصل بنا بالتليفون قبل أن تأتى حتى نعد لك أكلة طيبة تعوض عظامك التى جفت من (طبيخ) العزاب . بالمناسبة رقم تليفونى هو (......) .

وشكراً جزيلاً ..

أختك .. « إلهام السويفى »

أغلقت المظروف على الخطاب وشرعت شارد الذهن أتأمل (تنوة) القهوة فى الفنجان ...

(إلهام السويفى) ! .. يالها من ذكريات ..!.. صحيح أن الأسلوب ركيك ومليء بالأخطاء النحوية .. ولكن هل

تتوقع من (الهمام) أن تعرف أن المضاف إليه يُجر ولا يُنصب .. وأن تعرف أن الفعل المضارع الناقص يُجزم بحذف حرف العلة .. بل — والأدهى — أن كلمة (طبيخ) لا تناسب الفصحى ؟!

غريب هذا ... !

كان هذا الجزء من ذاكرتي قد مات تمامًا .. وها هي ذي تذكرني بنفسها و (بالشلة) إياها .. و (عماد) و (مدحت) .. إلخ ... أولئك الذين لو شيعتُ جنازاتهم لما اختلف الأمر كثيرًا .. فالحقيقة المروعة هي أنني لم أر أكثرهم ولم أسمع اسم أكثرهم من ثلاثين سنة تقريبًا ..!.. تخيل أنت أن رجلًا يصافحك في حماس مؤكدًا أنه الطبيب الذي أشرف على ولادتك ! .. فهل ستذكر وجهه ؟ .. هل ستعرفه ؟.. بالطبع لا ...

كان موقفي ساعتئذ قريبًا من هذا ...

* * *

(المنصورة) حبي الأول ...

لو ولدت في (الشرقية) لكنني عشت أجمل سني حياتي في (المنصورة) .. ولهذا لم أزل أحسب نفسي في عداد أبنائها ...

إن وطنك هو المكان الذي ارتديت فيه أول سروال طويل في حياتك .. ولعبت أول مباراة كرة قدم .. وسمعت أول قصيدة .. وكتبت أول خطاب حب .. وتلقيت أول (علقة) من معلمك أو خصومك في المدرسة .. وطنك هو المكان الذي ذهبت فيه للمسجد أول مرة وحدك .. وخلعت حذاءك متحديًا صديقك أن يقف جوارك لتريا أيكما أطول قامة .. ، ووطنك هو أول مكان تمرغت على عشبه في صراع دام مع صديق لدود من أجل فتاة لا تعرف شيئًا عن كليكما .. !

لقد كان وطني هو (المنصورة) وسيظل كذلك ..

مشاهد عدة أسترجعها .. أبي المتوفى .. نحيب أمي وعبارة واحدة ترددها وهي تحرك رأسها يمينًا ويسارًا :

— « كيف أربيهم ؟.. كيف ؟ » .

ثم خالي (عبد الرحمن) يعانقها ويعانقني ويعانق شقيقتي (رئيفة) وأخي (رضا) والدمع في عينيه ، ويومها عرفت أن مصائرنا تحددت .. (رضا) أكبرنا سنًا سيظل في (كفر بدر) ليرعى الأسرة ويفلح الأرض ، وكذا (رئيفة) لأنها فتاة ويجب أن تظل جوار أمها .. ثم إن البيت في القرية لا يستقيم دون امرأة حتى ولو كانت طفلة .. ، أما عني أنا ..

— « اسمعى كلامى يا (فاطمة) .. (رفعت) ذكى ويمكنه أن يفلح فى الدراسة .. ربما صار طبيبًا أو مهندسًا أو ضابطًا .. وحرام أن تضيعى عليه فرصة كهذه لمجرد أن يظل فى حضنك .. » .

— « ولكننا لا نملك ... » .

— « سيعود معى إلى (المنصورة) ليعيش فى دارى مع (عماد) و (مدحت) و (عبير) أبنائى .. وكلهم فى مثل سنه .. ثم إننى خاله .. والخال والد يا (فاطمة) .. لا تنسى هذا .... » .

كان الاختيار صعبًا لكنه محتوم .. ، ولم تلبث أمى أن استسلمت لرغبة خالى .. وكان الفراق مؤثرًا إلا أننى – كدين الأطفال – لم أكد أبتعد عشرين مترًا عن دارى حتى جفت الدموع فى مقلتى .. ونسيت كل شىء عن (كفر بدر) ..

كانت (المنصورة) فاتنة منذ اللحظة الأولى ولم أستطع أن أخفى انبهارى .. لا تنس أنها أول ما رأيت فى حياتى من مدن ..

ودار خالى الأنيقة – أو ربما هو ما رأيته – والأصدقاء الجدد الذين دخلوا عالمى ودخلت عالمهم ...

ولسنوات عدة – وحتى التحقت بالكلية – عشت فى

وطنى الجديد مكتفيًا بزيارات قصيرة لـ (كفر بدر) مرة أو مرتين فى الشهر ..

هى سنوات هانئة تلك التى عشتها هناك فى (المنصورة) ..

فقط بعض المغامرات الصغيرة كالفرار من المدرسة إلى السينما، وتسلق سور فيلا ، وصيد الأسماك النيلية فى إحدى العزب القريبة ...

كنا أطفالا نسكن فى شارع صغير ضيق تزينه أشجار العجوز على الجانبين وكانت الشمس تزخرف أرض هذا الشارع بالظلال طيلة ساعات النهار وطيلة فصول العام .. بينما نحن نزخرف جدرانه بأسمائنا ورسوم ساذجة بالطباشير ونتائج مباريات كرة القدم المحلية بنفس المنطق والفخر اللذين جعلا (رمسيس الثانى) يزخرف جدران المعابد بانتصاراته ..

كانت الحياة تمضى .. وكنا سعداء ...

والآن دعنى أعرفك شلتنا الصغيرة ...

أما هذا الصغير النحيل العصبى بمنظاره السميك الذى كسر إطاره وتم لحامه بالحرارة فهو أنا .. وكما تلاحظون لم أتغير كثيرًا سوى زحف الجدب على مقدمة رأسى ...

أما هذان الطفلان الجميلان فهما (مدحت) و (عماد) ابنا خالى .. وهما – كما لابد أنك لاحظت – توءمان ..

الفتاة الأولى ذات الضفيرة والسن الناقصة هى (عبير) ابنة خالى ، وهى شيطانة صغيرة خبيثة لا تكف عن الضوضاء ..

أما الفتاة الثانية فهى (إلهام) صاحبة الخطاب .. وإذا ظننت للحظة أنها ولد بسبب شعرها القصير وارتدائها البنطال فاعلم أن الكثيرين ارتكبوا الخطأ ذاته .. ثم كانوا يسمعون صوتها الرقيق فيدركون أنها طفلة تصر أمها على محاكاة موضة الـ (آلاجارسون) التى يترجمها (طه حسين) بـ (المسترجلة) ويترجمها (العقاد) بـ (الغلامة) ..!

كنا نلتقى فى الشارع بعد سويعات المدرسة .. أو فى أيام الصيف فنبدأ فى لعب كرة القدم أو المساكة أو أية لعبة أخرى .. ثم نمل كل شىء فننفصل أيامًا نعود بعدها لذات الألعاب ...

وكانت طبقتنا واحدة هى طبقة أبناء الموظفين (وهى طبقة محترمة فى الثلاثينات) لهذا كان انسجامنا تامًا ...

وكنا نتشاجر على الفوز برضا سيدة الأقمار السبع

ومليكة (سبأ) الشهيرة باسم (إلهام) إذا ما كنت تفهم صراع الأطفال المضحك من أجل رضا فتاة ..

كان (عماد) يقلص وجهه ويأتى بأصوات غريبة من حلقه محاولاً إبهارها .. وكان (مدحت) يثب على ذراعيه ويمشى مقلوبًا .. وكنت أنا أرسم وجهها ..

الخلاصة أن كلاً منا حاول أن يريها أفضل ما فيه من صفات .. لكنها – وهذا طبيعى – لم تر فى التوءمين سوى نسخة مكررة لبعضهما .. ولا معنى لأن تهتم بأحدهما دون الآخر ، أما أنا فكنت الوحيد الذى لا شبيه له .. لهذا لم تخف ميلها نحوى خاصة وأنا أقربهم سنًا لها .. وموضوع وفاة أبى قد جعلنى – فى رأيها – كائنًا أسطوريًا عركته الحياة وذاق من التجارب ما لم يذقه هؤلاء المترفون ...!

هكذا مرت الأيام ...

ثم ..... لا أذكر أحداثًا معينة ذات بال ..

متى انفصلت هذه المجموعة ؟.. لا أدرى .. لكن هناك لحظة ما كان محتمًا أن تأتى .. ولم تعد الفتاتان معنا فى نفس المدرسة ... ولم نعد نرى (إلهام) لكننا كنا إذا قابلناها مصادفة نجدها قد صارت فتاة أخرى .. حتى شعرها صار طويلاً وكفت عن ارتداء البنطال ، وكانت

تطرق بعينيها للأرض ويحمرّ وجهها معلنة أنها لا ترغب في تبادل الحديث في الشارع .. أو - أحيانا - تهزّ رأسها بتحية عابرة فاترة لا ودّ فيها ..

حتى في دار خالي صار هناك نوع من الحصار حول (عبير) .. ولم أعد قادرا على رؤيتها في كل وقت ولا بدخول غرفتها كما اعتدت في طفولتي .. وصار أخواها أكثر تحفظا في الكلام عنها .

ونظرت للمرآة لأرى ما تبدل ...

فوجدت (رفعت) آخر ينظر لي .. عيناه لامعتان .. والزغب يملأ شفته العليا حتى خيل لي أنه غبار يمكن إزالته بأصبعي ..

لكنه لم يزل ...

لقد كبرتُ ..!

كنت أصرخ وأبكي .. إن كل طفل يسرّه أن يصير رجلا .. لكني مختلف عن الآخرين ، إنني مستعد تماما للتخلي عن هذا الشرف مقابل أن نعود لبراءة ونقاء الماضي .. ليوم واحد فقط ...

فجأة امتلأت حياتي بالجدرانْ ...

وأدركت - في رعب - أن حياة الرجولة ستكون قاسية حقا ..

* * *

تبا للذكريات ..!

بعد دقائق فطنت إلى أنني كنت أكلم نفسي وأردد عبارات قلتها في طفولتي .. وأضحك وأقطب استجابة لأفعال أشخاص لا وجود لهم !..

لقد عثرتْ عليّ (إلهام) بعد كل هذه الأعوام .. وبعد أن بدأت الجدران المقامة بيننا تبلى وتتآكل . وحين هوى الجدار الأول وجدت هي تلك المجلة اللعينة وقررت أن تكتب لي ...

تلك المجلة التي وقعت في أيدي (نابيشا) وجعلتها تلعب معي لعبة (ميدوسا) ود. (رمزي) وجعلته يدعوني لتشريح مومياء الفرعون ..

لو كنت ثريًا لاشتريت كل نسخ هذه المجلة وأحرقتها .. لقد قضيت وطري من الفخر بصورتي القبيحة المنشورة بها ، ولم يعد هناك سوى دفع فواتير الشهرة ..

ولكن ....

لماذا لا ألبي دعوتها ؟ .. إن (المنصورة) هي قطعة من روحي ، ولا بأس من أن يزور المرء الموضع الذي فارق فيه روحه قبل أن يتزوج ويضيع للأبد ..

كنت قد وصلت لداري ...

ودون أن أنزع ثيابي مددت إصبعي لقرص الهاتف .. وطلبت رقمًا ما ...

٣ ــ أسطورة البيت ..

كنت قلقًا فى أثناء ذهابى للموعد المنشود ..

فقد تركت (المنصورة) منذ أعوام عديدة ، بعد التحاقى بكلية الطب فى (القاهرة) ووفاة خالى .. وبعد انتهاء واجب العزاء رحلت ولم أعد بعدها أبدًا .. ، ذبتُ تمامًا فى حياة القاهرة حتى أننى لم أحضر زفاف (عبير) ولا زفاف أخويها برغم أننى تلقيت الدعوة .. وبرغم أن (مدحت) زارنى فى دارى أكثر من مرة ..

لقد مزق رحيل خالى حبلاً متينًا كان يربط بيننا .. كأننا سفن تمزقت حبال مرساتها لتضيع فى البحر الواسع ولا تعود للميناء أبدًا ..

فقط عرفت أن (إلهام) تزوجت وتعيش فى مكان آخر بالمنصورة ، وأن أولاد خالى لم يروها منذ أعوام طويلة ، عرفت كذلك أن كل شىء قد تبدل فى المدينة عما كان فى الثلاثينات السعيدة ..

لهذا .. شعرت بالرهبة والقلق ..

خشية ألا أعرف المكان .. وخشية ألا يعرفنى المكان ..

* * *

ودخلت مدخل البناية الأنيقة الظليل صاعدًا إلى الطابق الثانى لأقرع الجرس وأتنحنح ..

هو ذا الباب يُفتح عن وجه وقور أشيب الشعر كث الشارب ، وخلفه لمحت امرأة بدينة بشعة المنظر تبتسم لى فى مودة غير عادية ..

ــ « أنا .... » .

فتعالى صوتها فى مرح من خلف كتف زوجها :

ــ « أنت لم تتغير يا دكتور (رفعت) !! » .

رحب بى الرجل فى مودة ــ وبيد ثابتة مليئة بالثقة ــ وقال باعتداد :

ــ « مهندس (محمد أيوب) .. مرحبًا بك ... » .

ثم دعانى للدخول .

كان الأثاث أنيقًا والأرض مكسوة بسجاد فاخر .. وثمة رائحة عطرة فى الجو توحى لى بأنهم قاموا برش مستحضر ما تحسبًا لقدومى .. والواقع أننى فهمت أنهم استعدوا لزيارتى إلى حد كبير .. فالأناقة والنظافة العامة توحيان بأنهما غير معتادتين .. ومن المستحيل أن يظل (الباركيه) لامعًا إلى الأبد فى بيت تعيش به أسرة ..

حتى (إلهام) بدا واضحًا أنها تأنقت قدر استطاعتها

وأجبرت زوجها على ارتداء بذلة أنيقة ، وبرغم هذا لم أستطع أن أخفى ما شعرت به من غمّ إزاء ما طرأ على جمالها القديم من تبدّل .. هل حقًا كبرنا إلى هذا الحدّ المفزع ؟.. إذن كيف أبدو أنا .. أنا الذى لم يتهمه أحد بالجمال ..؟

أنا أعرف أن الزمن قاس ، لكنى لم أتصور مدى هذه القسوة !..

وجلسنا نرشف الشاى وآكل قطع الجاتوه مرغمًا على حين أخذتْ تسألنى عن أحوالى وعن السرّ فى عدم زواجى (ذلك الموضوع المحبّب لدى الناس جميعًا ولا يبدو أن عندهم غيره) ثم عن ميعاد زواجى بعد أن لمحت خاتم الخطبة فى خنصرى الأيمن ..

دخل الغرفة طفلان مزعجان يتدلى المخاط من أنفيهما قالت لى إنهما (مجدى) و (محمود) ابناها .. تشرفنا .. هل أنتما مجيدان فى الدراسة ؟.. إن (مجدى) يحفظ الأرقام من واحد إلى عشرة ..

تراجعت للوراء راسمًا أفظع علامات الدهشة على وجهى .. وتساءلت غير مصدق :

— « هل تقولين هذا لتثيرى ذهولى فقط ؟ » .

— « بل هو الواقع ... » .

ونفش الطفل السخيف صدره وشرع يتلو الأرقام حتى عشرة ، ثم أخذ يدور بوجهه يمينًا ويسارًا فى فخر مبتذل .. الله ! .. أنت شاطر يا أخ (مجدى) .. ليس هذا فحسب .. فإن (محمود) يجيد غناء أغانى (عبد الحليم حافظ) ..

ألن ينتهى هذا الهراء ؟! ..

وهنا دخلت خادمة صغيرة مصابة بفقر الدم تدعونا إلى مائدة الطعام فنهضنا ، وقادنى الزوج إلى الحمام لأغسل يدى ووجهى ، ثم جلستُ على المائدة المرعبة المزدانة باللحوم وعشرات الأنواع من الخضر والسلاطة و.. و.. قلت لها فى حرج :

— « يبدو أنك توقعت أن الجيش البريطانى آت للغداء معى ! » .

صاحت فى مرح وهى تصب لى الحساء :

— « بل هكذا أكلنا كل يوم .. ! » .

يا سلام !.. تريد أن تقنعنى أن هناك بيتًا قادرًا على إعداد هذا الطعام يوميًا فضلاً عن طهوه ..!.. إنه التفاخر الأخرق الذى لا مبرر له ..

قالت لى وهى تأكل فى نهم :

— « هل تذكر بيت (الخضراوى) ؟ »

توقفت عن المضغ ونظرت نحوها فى حيرة ....

* * *

ـ « ما هذا البيت يا (عماد) ؟ » .

ـ « إنه بيت (الخضراوى) يا (رفعت) ؟ » .

ـ « لاحظت أنكم تبتعدون عنه فى أثناء اللعب .. » .

ـ « هكذا نصحنا بابا ... » .

كان الإغراء قويًا ..

فالبيت ـ الشبيه بفيلا من طابقين ـ كان يقف على حافة النيل بينما يتكاثف ضباب الفجر حوله فيجعله أشبه بوحش أسطورى ينتظر ... وفى أعماقى تحرك شعور شهى .. الرغبة فى المجهول والخوف منه ..

ـ « فلندخل ... » .

صاح الأخوان فى صوت واحد :

ـ « سيعرف بابا ويعاقبنا ... » .

ـ « إذن فلنقترب منه أكثر ... » .

لم أكن أجسر على الاقتراب وحدى وكنت محتاجًا لصحبة ... وفى تؤدة ـ كخمس قطط صغيرة تتسلل فأرة ـ زحفنا نحو البيت ، أذكر هواء الفجر الندى المشبع بالمازوت (ولا أدرى مصدره) .. وصوت الأعشاب تتهشم تحت أقدامنا .. والمنزل يكبر .. ويكبر .. ويكبر ...

لم يكن ثمة مخلوق فى المنطقة سوانا ، وكان السور الحديدى الصدئ المحيط بالبيت مغطى بالطحالب الخضراء وأوراق نباتات شيطانية تبرز منه ، ومن خلفه لمحنا غابة ـ أعنى حديقة ـ متشابكة الغصون والأوراق ، وأشجارًا لا أدرى اسمها يلتف ـ كأنها تتلوى ألمًا ـ حول بعضها البعض ..

كانت يد (إلهام) الصغيرة ترتجف فى كفى .. وكان كفى الآخر يرتجف فى كف (عماد) الذى كان كفه ... إلى آخر الدائرة ... وفى أعماقنا دوى صوت يهيب بنا مرارًا أن نبتعد .. يجب أن نبتعد .... لقد مضينا إلى أبعد مما ينبغى وحان الوقت كى نهرب قبل أن نرى ما نخشاه ...

وهنا حدث شىء غريب ...

* * *

ـ « لكنك لا تأكل يا د. (رفعت) ! » .

دوى صوت الزوج يهيب بى ألا أغرق فى شرود الذهن ..

رفعت الملعقة إلى فمى وقلت مواصلاً المضغ :

ـ « بيت (الخضراوى) ؟.. نعم .. أذكره طبعًا ... » .

قالت وهى تصفع أحد الطفلين كى يكف عن سكب الحساء على المفرش وتلطم الآخر كى يكف عن إعادة ما فى فمه إلى الطبق :



وكان السور الحديدى الصدئ المحيط بالبيت مغطى بالطحالب الخضراء وأوراق نباتات شيطانية تبرز منه ..

— « أنت تعرف أننا لم نعد إليه قط منذ ذلك اليوم .. » .

— « هممممم ! » .

— « .. حسن .. لقد عادت (شيراز) من جديد ! » .

سقط كوب الماء من يدى على مفرش المائدة .. وشرعت فى ذهول أرمق بقعة الماء تتسع تدريجيًا ..

* * *

كانت البوابة الصدئة مواربة غير مغلقة ..

ومن وراء فتحتها كانت واقفة .. وحيدة .. رقيقة .. نحيلة كزهرة .. فتاة صغيرة فى مثل سننا ترتدى قميص نوم أبيض طويلا يصل لقدميها .. وقد عقدت شريط العنق على شكل (فيونكة) صغيرة .. كان شعرها أسود فاحما كالليل ينساب حتى خصرها .. أما عيناها فكانتا غريبتين .. لم أكن قد رأيت عينين زرقاوين فى حياتى ، ولقد أصابنى الذهول وأنا أرى فتاة تحمل فى عينيها لجّتين من مياه البحر شديدة الزرقة والصفاء والشفافية .. حتى أننى ساءلت نفسى :

— « تبدو كالعمياء .. كيف ترى بهاتين المقلتين الشفافتين ؟ » .

وقفنا — كمن أصابنا مسّ كهربى — على البوابة

عاجزين عن التفكير .. أما هى فقد فتحت البوابة أكثر ..
وعلى وجهها ارتسمت أعذب ابتسامة رأيناها فى حياتنا ..
ثم سمعنا أجراس الملائكة تقول :

ــ « تعالوا .. لا تخافوا .. هذا هو بيتى ..؟ » .

كان (مدحت) أول من استعاد القدرة على النطق ..
فقال متلعثما :

ــ « هل .. هل أنت بنت الخضراوى .. ؟ » .

لم ترد .. بل أشارت لنا لندخل .. ومدت يدها البلورية تعانق (عبير) وتلثمها على خدها :

ــ « ما أجملك ! .. ما اسمك يا حلوة ؟ » .

ــ « (عبـ ..) (عبير) .. » .

ــ « اسم جميل .. وأنا (شيراز) .. صديقتكم .. » .

ــ « اسمك غريب لكنه جميل يا (شيراز) .. » .

ثم إن (شيراز) عانقت (إلهام) وهمست فى رقة :

ــ « لماذا تلبسين كالأولاد ؟.. لكن ــ هل تريدين رأيى ؟.. ــ اعتقد أنك هكذا أجمل .. » .

ثم صافحتنى .. لن أنسى هذه اليد الباردة الشفافة البلورية ما حييت .. تعمدت عدم الضغط حتى لا أسمع صوت الـ (كراش) الذى أخشاه !..

وفى تهيب دخلنا الحديقة معها نجرجر أقدامنا ..

قالت تتقدمنا عبر الأشجار متجهة الى البيت ..، وقرعنا الباب عدة مرات بمطرقة على شكل قبضة يد ، فانفتح الباب عن خادم نوبى .. ثم إنها دخلت ونحن خلفها إلى مدخل أنيق تحفه المرايا والتحف ...

الغريب أن نسيج العنكبوت كان يغلف كل شىء ..
فهل هم لا يملكون ما يزيلون به هذا النسيج ؟

* * *

ــ « آسف جدًا .. لكنى لا أفهم كيف عادت ؟ » .

قالت (إلهام) وهى تضع منشفة على مفرش المائدة فوق البلل الذى حدث :

ــ « أمس مررت بالصدفة ــ فى الصباح الباكر ــ جوار البيت فوجدتها واقفة جوار البوابة .. وكانت تضحك لى ! » .

ــ « غريب هذا .. ! » .

ــ « لماذا لا تأكل يا د. (رفعت) ؟ » .

ــ « لقد شبعتُ تمامًا .. ولكن .. هل حدثتها ؟ » .

ــ « بالطبع لا .. لم أجرؤ على ذلك .. » .

ــ « ولمه ؟.. بعد هذه السنوات .. هل تزوجت ؟ » .

ــ « مستحيل أن تكون قد تزوجت يا د. (رفعت) .. » .

سألتها وأنا أشعل سيجارة :

- « ولماذا ؟.. لابد أنها قد صارت عروسا فاتنة .. » .

قالت في برود وهي تصب بعض الخضر في طبق طفلها :

- « إن (شيراز) يا د. (رفعت) - بعد كل هذه الأعوام - لم تزل طفلة !! » .

* * *

٤ ـ الفتاة التي لم تكبر ..

ـ « ماذا ؟.. ماذا تعنين بالضبط ؟ » .

ـ « أعني ما سمعته .. الفتاة ظلت طفلة كما عرفناها .. » .

نفثتْ دخان السيجارة وتأملت التبغ في شرود .. ثم سألتْ :

ـ « تعنين أنها مصابة بتقزم هرموني ؟.. خلل في الغدد مثلاً ؟ » .

ضحكت في سخرية وهمست :

ـ « ألا تنسى أنك طبيب أبداً ؟.. أنت تذكر تلك الأيام وتلك الفتاة .. وتعرف مثلما أعرف أن الأمر أخطر من هذا ... » .

ـ « تعنين ... » .

نظرت إلى عيني زوجها ثم إلى عيني .. وهمست :

ـ « أعني أن هذه الفتاة لم تكن طبيعية ... » .

* * *

نحن أيضاً شعرنا بذلك ونحن نجتاز مع الفتاة صالة دارها ..

العنكبوت فى كل مكان وكذلك جو العظمة الغابرة ...
وكانت هناك امرأة تقف جوار مائدة طعام عملاقة ..
امرأة شعرها بلون الجليد .. ولها وجه رقيق ملىء
بالتجاعيد (ليس من ديدن الأطفال ملاحظة الثياب لكنى
أعتقد أن ثيابها كانت فاخرة) .. وما إن لمحتنا حتى
هشّ وجهها وبشّ وتقدمت نحونا :
ـ « أصدقاء (شيراز ؟) .. مرحبا بكم .. إن أصدقاء
ابنتى هم أبنائى .. ومشكلتى هى أنها لا تجد أصدقاء
من سنها .. ما أسماؤكم يا أحبابى ؟ » .
ـ « (رفعت) .. » .
ـ « (عبير) .. » .
ـ « (إلهام) .. » .
إلخ .. ثم إنها أجلستنا على المائدة وقدمت لنا
(جيلى) أزرق اللون شهى المذاق إلى حد غير عادى ،
وشرعت تسألنا عن أهلنا ومدارسنا وأحوالنا .. ثم
سألتنى :
ـ « لماذا لم أركم من قبل..؟ » .
تنحنحت .. وبمرح قلت :
ـ « الواقع أننا ... » .
ابتسمت فى رقة وربتت على كتفى :

ـ « لا تقل .. دعنى أخمن .. أعتقد أن أهلكم يحرمون
عليكم المرور هنا .. » .
ـ « الواقع ... » .
ـ « .. فليكن ..!.. لا داعى لأن تخبروهم بشىء ..
ولكن كل ما أرجوه هو أن تعودوا إلىّ من وقت
لآخر .. » .
وقدمت لى طبقا مليئا بالشليك (الفراولة) ..

* * *

أنهيت التهام الشليك الذى قدمته لى (إلهام) وقلت :
ـ « الواقع أن كل شىء كان غريبًا هناك .. الـ (جيلى)
الأزرق والشليك فى (نوفمبر) ورائحة الجو .. » .
ـ « بالذات رائحة الجو ... » .
ثم نظرتْ إلى ابنها .. وهتفتْ :
ـ « (مجدى) .. إذا كنت قد فرغت من طعامك فلتعد
لحجرتك .. » .

* * *

ـ « نعم .. فرغنا من طعامنا ويجب أن نعود ... » .
قلناها فى حرج للأم التى قادتنا إلى الباب الخارجى
ومعها طفلتها الحسناء ..

وفتحت لنا البوابة فدوى ذلك الصرير البارد ..

— « مع السلامة يا أحباب .. » .

— « مع السلامة .. » .

وخرجنا لا نلوى على شيء .. لكننا كنا محبوسى الأنفاس مبهورين بهذا العالم الغامض الذى لم نر مثله من قبل ..

لم نثرثر ولم نتبادل الآراء لكننا عرفنا جميعًا أننا سنعود وأننا لن نحدث الكبار عن شيء .. أما (شيراز) فظل مذاقها فى ثغورنا وأرواحنا كحبة (شليك) حمراء باردة تبلورت حبيبات السكر على مسامها ..

وقبل أن نبتعد عن البيت صاحت (عبير) فى حيرة وهى تشير إليه :

— « هل لاحظتم شيئًا غريبًا ؟.. » .

— « ماذا تعنين ؟.. » .

— « إنها ساعات النهار الأولى والطيور تتزاحم فوق الأشجار .. لكننى لا أرى طائرًا واحدًا فوق أغصان هذا البيت ! » .

* * *

— « هل تذكر فرار الطيور بعيدًا عن حديقتهم ؟ » .

— « والقطط الضالة ... » .

قال الزوج وهو يضع الأطباق بعضها فوق البعض :

— « الواقع أنكم كنتم شديدى البراءة .. لقد فعلت الطبيعة كل ما تستطيع كى تحذركم من أن ما يجرى فى هذا البيت مريب .. لكنكم لم تفهموا .. » .

* * *

نعم لم نفهم ...

وفى الأيام التالية صرنا نذهب للبيت .. أحيانًا فى النهار وأحيانًا بعد الغروب ، وكانت (شيراز) دائمًا هناك واقفة خلف البوابة الصدئة ..

وكعادتها تضحك وتلثم الفتاتين وتقودنا للداخل ..

ويبدأ الحلم ...

ألعاب لا حصر لها .. المساكة .. لعبة الأدغال .. صيد السحالى الصغيرة (لم يكن يلعبها سوى الصبيان بطبيعة الحال) .. لعبة الكرة .. تسلق الأشجار .. وبعد ساعتين كنا نفارق البيت غارقين فى العرق تختلج السعادة فى أعماقنا ، نتمنى أن نموت فلا نبعث إلا حين يأتى موعد الغد ..

* * *

— « (شيراز) .. أنا أحبك ! » .

— « (رفعت) .. كف عن هذا وإلا أخبرت ماما ... » .

— « سأموت إذا ما طلبتِ أنتِ مني ذلك ! » .

— « إذن .. مُتْ ! » .

فأمسك بقلبي وألتوي ألمًا ثم أسقط على الأرض فوق الأغصان المهشمة والأوراق الجافة .. صوت التهشم ..

— « هأنذا قد متُّ كما أردتِ .. والآن هل تحبينني ؟! » .

فتركل جسدي الممدد على الأرض في دلال .. وتصيح :

— « كاذب رعديد ! .. وماذا عن (إلهام) ؟ » .

أصيح وأنا أغمض عيني من جراء أشعة الشمس :

— « لم تعد تعنيني قط ... » .

— « سأخبرها ..! » .

عندئذ أنسى دور العاشق اللاتيني الذي ألعبه وأنهض ملوحًا بقبضتي ..

— « حاولي أن تقولي لها شيئًا وسأكسر رقبتك ! » .

لكنها تكون قد تركتني وانطلقت تجري بين الأشجار واضعة كفيها على فيها كمكبر الصوت .. وهي تصيح :

— « إسمعي يا (إلهام) ! .. (رفعت) يقول ... » .

— « اخرسي يا مجنونة !.. » .

وأكون قد لحقت بها وأمسكت بـ .. بمرفقها وجذبته

بقوة فيختل توازنها وتسقط على رأسها سقطة قوية كاد فؤادي ينخلع لها ... أدركت دون جهد أنها — ولابد — جرحت جرحًا بليغًا وسيكون موقفي عسيرًا أمام أهلها.. وأمام أهلي .. وأمامه .. !

ساعدتها على النهوض وأنا أعتذر بعنف .

— « سامحيني ! .. كنت أمزح .. ! » .

المقت والألم في لجة العينين الزرقاوين كأنما ألقي فيهما حجر ... تمسك بجبهتها ولا ترد .. لكنني أرى الجرح بوضوح تام يشقّ جلد الجبين البلوري .. والغريب هنا أنني لم أر قطرة دم واحدة ! .. ولا قطرة .. كأنما الجرح في قطعة من الشمع ..

— « إنه لجرح كبير .. يجب أن تذهبي للمستشفى حيث ... » .

— « لا ... ! » .

قالتها في حزم وصرامة .. ثم أسدلتْ بعض خصلات الليل الأسود فوق الجرح ونهضتْ في كبرياء وأنا وراءها خزيان ..

كان الجرح يمنعني من توجيه الأسئلة .. أسئلة لابد منها عن الجرح الذي لا ينزف دمًا .. لهذا تناسيت القصة كلها وعدت أحاول اكتساب رضاها ..

لكنى أرى الجرح بوضوح تام يشق جلد الجبين البلورى .. والغريب هنا أننى لم أر قطرة دم واحدة ؟ ..

وتوسلت لها مرارًا ألا تخبر أمها أبلى السبب ...

ـ « أنت جبان .... » .

ـ « نعم جبان جدًا .. ولكن ليس خوفًا من العقاب بل خوفًا من الحرج ... » .

ضحكت فى دلال وهزت شعرها تلقائيًا ، قائلة :

ـ « أنت تجيد تبرير عيوبك ... ! » .

غريب هذا ..؟

لم أكن فى هذه المرة قادرًا على رؤية الجرح !.. لقد سقطت خصلات الشعر التى تداريه .. وها هو ذا الموضع أمام عينى .. لكنى لا أرى الجرح !.. لا أراه وأقسم على ذلك ..

* * *

قالت (إلهام) وهى تصب الشاى :

ـ « أكثر من مرة جرحت الأشواك يدها أمامى ولم أر دمًا .. » .

قلت فى دهشة :

ـ « لاحظت ذلك أنت الأخرى ؟.. ولم لم تخبرينا ؟ » .

ـ « إن الأطفال يرون أشياء كثيرة لكنهم لا يحاولون تفسيرها ... » .

تناولت قدح الشاى منها شاكرًا ووضعته أمامى ..

أفضل أن يكون الشاى فى كوب لكنى لم أجرؤ على طلب ذلك منها .

قال زوجها وهو يتناول قدح الشاى الخاص به :

تقول (المدام) إنك كنت مدلهاً فى حب (شيراز) ... ،

غمغمت (إلهام) وهى ترفع حاجبها الأيسر فى تهكم :

ـ « ليس هو فقط .. بل و (سامح) و (عماد) كذلك .. » .

* * *

أية آلام مزقت القلب الصغير ـ قلب (إلهام) ـ وهى تفقد عرشها ببطء ..!!

لم تعد ملكة (سبأ) ولا سيدة الأقمار السبع ولم يعد الأولاد الثلاثة يصطرعون من أجلها .. ولم يعد أحد يهتم بمعاونتها على تسلق الأشجار أو عبور الحفر العميقة .. ومنذ شهرين لم يسطُ أحد على الفيلا المجاورة ليسرق لها وردة حمراء من الحديقة ..

لقد احتلت اللعينة (شيراز) كل جوارحنا .. ولم نعد نتقاتل إلا من أجلها .. ولا نمزح إلا من أجلها .. ولا نتحدث إلا عنها ..

كل الورد الأحمر وقطع (الكراميل) ورسومى صارت لها وحدها .. حتى ضرس (عماد) المخلوع

المسوّس احتفظ به ليريه لها وحدها .. ولم يره أحدنا برغم توسلاتنا ..

كان القلب الصغير يطفح بالألم وبالحسم وبالصديد لكنها ظلت صامتة تتظاهر بالمرح .. كانت (إلهام) تتعذب ..

ولم تكن قادرة على الحقد على (شيراز) لأنها كانت تقلدها فى كل شىء بثياب الفتيان التى ترتديها وشعرها القصير والسنّ الناقصة التى تظهر إذا ابتسمت .

القلب الصغير يطفح بالقطران والدخان الأسود ..

إلى أن جاء اليوم الذى انفجرت فيه ..

كنا نلعب الـ (سيجة) على الأرض .. نحن الثلاثة عند (شيراز) وكانت (عبير) تراقب الموقف فى خبث .. وهنا سمعنا صرخة .. صرخة روح تحترق :

ـ « أنتم جميعاً هنا من أجلها .. لا أحد يريدنى .. ولم يعد أحد يعبأ بى ! » .

كذا صرخت (إلهام) وهى تركل الأرض مبعثرة رقعة (السيجة) التى رسمناها بالطباشير ... ثم ركضت والدمع يترقرق فى عينيها :

ـ « لكن .. سأعود لدارى ولن آتى هنا أبداً .. ! » .

وليس هذا كل شىء ..

— « وسأخبر كل الناس أنكم تأتون هنا ! » .

وقبل أن نفهم ما حدث كانت قد فرت جارية من الحديقة .. صورة مصغرة للانتقام .. (سالومي) الطفلة دامعة العينين تهرول في الطرقات عازمة على خراب بيتنا .. !

* * *

— « كنت غيورًا جدًا والحقُ يقال .. » .

قالت (إلهام) وهي تبتسم في حرج :

— كنتُ (فتاة) جدًا .. هذا هو كل شيء .. » .

— « وجلبتِ الوبال على رءوسنا .. » .

— « عليّ وعلى أعدائي ! » .

رشفتُ جرعة من الشاي وأنا أسمع صوت خالي ينادينا بعد أن فرغ — هو الآخر — من رشف الشاي ..

* * *

وقفنا — أنا و(عماد) و(مدحت) و(عبير) — محمري الآذان أمام خالي بانتظار كلمته الأخيرة .. بينما يتبادل وزوجته نظرات ذات معنى ..

ثم قال في تؤدة :

— « عرفت من أم (إلهام) أنكم تذهبون إلى بيت (الخضراوي) .. ألم أنهكم عن ذلك ؟ » .

ساد الصمت البليغ لبضع ثوان ...

— « كم مرة ذهبتم هناك ؟ » .

— « .... » .

— « كم مرة ؟.. ثلاث مرات ؟.. أربعًا ؟.. عشرًا ؟ » .

— « .... » .

— « أكثر من عشر مرات ؟! » .

واحمرّ وجهه كعرف الديك — وأوشك على الكلام لولا أن تدخلت زوج خالي :

— « لحظة .. ماذا رأيتم هناك ؟ » .

بحرج شديد وارتباك بدأنا نحكي كل شيء .. (شيراز) والأم والخادم النوبي وغيرة (إلهام) .. إلخ .. إلخ ..

كان الاهتمام يتزايد على وجه خالي ، والرعب ينمو في سحنة زوجته ، وثمة نظرة جانبية ذات معنى تبادلاها .. ثم عادا ينظران لنا ..

نهض خالي — بعد ما أنهينا القصة — إلى المكتبة فتناول المصحف مذهب الأطراف وعاد به ليضعه على مائدة الطعام .. وسألنا :

— « ما هذا ؟ » .

— « مصحف .. » .

— « إذن أقسموا عليه إنكم لن تعودوا إلى هذا البيت ما دمت أنا حيًا .. » .

– « ولكن ... » .

– « لا لكن .. إنكم لا تعرفون ربع ما نعرفه نحن الكبار عن ذلك البيت .. وأقسم بهذا الكتاب الكريم إن من لا يقسم منكم على ما أقول سينال أشنع عقاب ... » .

لم تكن أمامنا حيلة ...

أقسمنا .. والدمع فى عيوننا .. وثمة شعور عام أننا قد خنّا (شيراز) وخذلناها .. وأدركنا أن حياتنا من دونها ستكون أقسى وأكثر مللاً ..

* * *

إلى هنا والقصة لم تزلْ عادية ...

لكن الأقاويل تتناثر هنا وهناك ..

ولا يمكن لسرّ أن يظل فى قبره ..

لقد جاء اليوم الذى عرفنا فيه سرّ قلق خالى وذعر زوجته ..

وكانوا محقين ...

لقد توفيت زوجة (الخضراوى) وابنته (شيراز) وكل خدم البيت فى حادث غامض عام ١٩٢١ ..

وبالتحديد .. قبل أن ندخل نحن البيت بخمسة عشر عامًا .. !

* * *

٥ ـ لماذا عادت ؟ ..

قال لى زوج (إلهام) :

ـ « ألم تشعروا بالخوف ؟ » .

نظرت نحو (إلهام) نظرة ذات معنى .. ثم قلنا فى صوت واحد :

ـ « بلى .. شعرنا به بعض الوقت ثم نسينا الأمر برمتا .. » .

أردفت أنا فى صوت خفيض :

ـ « إن عواطف الأطفال سطحية جدًا ولا تدوم أكثر من دخان التبغ .. » .

ـ « ربما كانت دهشتنا أكبر بمراحل من خوفنا .. » .

ساد الصمت بضع دقائق .. ثم إننى رفعت عينا متوجسة نحو (إلهام) .. حتى هذه اللحظة لم أفهم كنه المشكلة .. . هى مجرد ذكرى مرعبة وانتهت ولم يعد هناك ما يدعو للقلق ...

ربما رأت (شيراز) .. وربما فوجئت بكونها لم تكبر .. فما الغريب فى كل هذا ؟.. لقد تأكدنا تمامًا من

أن (شيراز) شبح .. شبح من عالم الطفولة لا يراه سوى الأطفال ويخشاه الكبار كثيرًا .. فما هو الجديد إذن ..؟ ..

قالت (إلهام) وهى تنظر للأرض باحثة عن كلمات :

ـ « كانت الأمور مستقرة تمامًا على ما عهدناه .. ثم بدأت أشياء مريبة تحدث .. » .

ـ « مريبة ... ؟ » .

لعقت شفتيها بلسانها .. وهمست :

ـ « أعتقد أن (شيراز) قد تركت البيت باحثة عنا ! » .

* * *

ـ « (مجدى) ! .. تعال واحك لأونكل ما رأيته ! » .

اللعنة ! .. هل يجب علىّ أن أستمع لهذا الوغد الصغير مرة أخرى ؟..

ها هو ذا قادم حاملاً كتابًا دراسيًا وقد بدا عليه الفخر الصبيانى المبتذل لأهميته ..

سأل الأب ابنه وهو يديره نحوى :

ـ « ماذا رأيت الأسبوع الماضى ؟ » .

ـ « رأيت الأسد فى التليفزيون .. » .

ـ « ليس هذا يا أحمق ! .. احك ما رأيته فى الشارع المجاور .. » .

ابتلع الصبى ريقه .. وتمتم :

ـ « رأيت فتاة .. » .

ـ « وكيف كان شكلها ؟ » .

رفع الطفل يده إلى رأسه محاكيًا شعر الأنثى :

ـ « جميلة جدًا جدًا .. شعرها أسود .. وعيناها زرقاوان .. » .

نظرت لى (إلهام) نظرة عابرة معناها ـ حتمًا ـ (ألا يذكرك هذا الوصف بشىء ؟) .. ثم طلبت منه أن يستمر ..

ـ « كانت ترتدى قميص نوم أبيض .. و ... » .

ـ « و .. ؟ » .

ـ « طلبت منى أن ألعب معها .. لكنى خفت منها .. » .

ـ « ولماذا ؟ .. » .

اتسعت عيناه رعبًا وأرجع رأسه للوراء :

ـ « لا أدرى .. خفت منها .. » .

ـ « نعم .. ولكن لماذا ؟ » .

ضيق عينيه فى توتر ، وقال :

ـ « ربما .. ربما لأنها لم تكن تترك ظلاً على الأرض !! » .

تبادلت وأبوه نظرة حيرى .. لكن (إلهام) لم تتوقف عند هذه النقطة بل واصلت الاستجواب :

— « وماذا قالت لك بعدها ؟ » .

— « طلبت أن أنقل تحياتها لأمى ! » .

عند هذا الحد وثبت (إلهام) فى مقعدها وقد بدت على ملامحها أمارات الظفر .. وهتفت :

— « هل رأيت ؟.. إنها تذكرنا ! » .

قلت فى حيرة وأنا أشعل لفافة تبغ :

— « من هى ؟ » .

— « (شيراز) طبعًا .. لا أظنك بهذا الحمق .. » .

حككت رأسى فى شرود مغمغمًا :

— « الواقع يا (إلهام) أننى لا أجد الأمور بهذا الوضوح .. إن القصة كلها تبدو لى نوعًا من الخلط .. » .

— « بل هى واضحة كالشمس .. » .

وضربت الطفل على ردفه ليعود لحجرته .. ثم استطردت :

— « بعد كل هذه السنوات لم تزل الفتاة تستشعر الوحدة .. ولم تزل تبحث عن أصدقاء الطفولة .. أو على الأقل — تبحث عن أبنائهم ... » ؟!

— « ألا ترين فى هذا نوعًا من المبالغة ؟ » .

نهضت فى تؤدة لتضىء المصباح النيون المعلق فوق رءوسنا .. والضوء الأبيض النظيف يغلف الوجوه وقطع الأثاث .. وهمست :

— « د. (رفعت) .. يجب أن نبحث عن الآخرين .. » .

— « الآخرين ؟ » .

— « نعم .. أولاد خالك .. » .

— « فكرة لا بأس بها .. ولكن لماذا ؟ » .

— « يجب أن نعرف لماذا عادت (شيراز) ؟ وما الذى تبغيه منا ؟ » .

قالتها وابتسمت ابتسامة لم أدر مغزاها ...

* * *

قلت لـ (شيراز) وأنا أتأمل مشهد الغروب :

— « (شيراز) .. أنا أخاف الغروب .. كأننى أرى مصرع الشمس .. » .

التمع الضوء الأرجوانى فى لجتى عينيها الزرقاوين .. وهمست :

— « الشمس لا تموت عند الغروب يا (رفعت) .. بل تذهب لتنام فى دارها بعيدًا بعيدًا .. » .

كنت أرتجف كالورقة وخصلات شعرها الأسود تلمس أذنى :

— « (شيراز) .. أنا خائف ... » .

— خائف وأنا معك ؟! » .

لم أستطع أن أصارحها بالشعور الغريب الذى ينتابنى أحيانًا .. لم أجرؤ أن أخبرها أننى خائف لأنها معى !

* * *



لم أستطع أن أصارحها بالشعور الغريب الذى ينتابنى أحيانًا ..
لم أجرؤ أن أخبرها أنى خائف لأنها معى ! ..

مددت إصبعى إلى قرص الهاتف وضغطت على السماعة ما بين أذنى وكتفى لأتمكن من تقليب دفتر الأرقام الصغير ..

هاهو ذا رقم (مدحت) ..٣.. ١.. ٤.. ٢.. ٥.. ٦.. صوت الرنين المتقطع ثم صوت طفلة تتحدث بأسلوب الأطفال الناعس المتراخى .. ماذا تريد ؟.. بابا ؟.. ماذا تريد من بابا ؟.. إلخ .. ثم صوت رجل يضحك ويتناول السماعة منها ليسألنى فى رصانة عن شخصى .. ثم ...

ـ « (رفعت) !.. أيها النذل العجوز !.. أين ذهبت ؟ » .

ـ « أنا أتحدث من (المنصورة) .. من عند (إيه ...) .. مدام (إلهام) .. » ..

ارتفع صراخه الودى فى الهاتف يحلف آلاف الأيمان أننا لابد ملتقيان .. أعطيته العنوان وطلبت منه أن يحضر (عادل) و (عبير) معه لأن هناك موضوعًا مهمًا لابد من مناقشته .. حاول التنصل أو التأجيل لكنى كنت مصرًا كالخرتيت ... من ثم وعدنى بأن يحضر أباه وأخته وزوجته وزوجة أخيه وزوج أخته والأولاد جميعًا .. و ...

ـ « أ .. (مدحت) .. إن الموضوع جدى وخطير ..

وليس حفل تعارف لنادى الـ (روتارى) .. حاول أن تأتى أنت و (عماد) و (عبير) فقط ، على الأقل حتى لا ندمر شقة مضيفى ... » .

ــ « فليكن ... » .

ووضعت السماعة وهززت رأسى للزوج و(إلهام) أن قد تم الاتفاق دون خسائر .. وسيكون موعدنا هذا المساء ..

* * *

وكانت الأم تقطع لعبنا أحيانًا لتحضر لنا صينية عليها أكواب عصير البرتقال أخضر اللون (!!) .. أكواب باردة تكاثف بخار الماء على زجاجها .. فكنا نرشفها فى نهم وسرعان ما تتكاثف قطرات العرق على جبيننا .. وتغمرنا النشوة ..

ــ « برتقال عصيره أخضر وجيلى أزرق ! .. لا يوجد شىء واحد طبيعى فى هذا البيت .. » .

قالتها (إلهام) وهى تتأمل كوبها فى فتور ..

ــ « ولكن هذا هو ما يجذبنا إليه .. أليس كذلك ؟ » .

ــ « بلى .. ولكن .... » .

* * *

ولكن اللقاء كان حارًا فى شقة (إلهام) ...

أبناء خالى الأعزاء .. لقد تبدلوا جميعًا لكن الماضى ما زال فى أعطافهم ..

فالآن (عماد) قد صار مهندسًا .. و (مدحت) معلمًا .. و (عبير) ربة بيت غير عاملة .. ازداد التوءمان بدانة وازدادت أختهما ضمورًا ..

وفى الصالون بدأنا المناقشة ...

فى حماسة ذكرتهم (إلهام) بذكرياتنا المشتركة المرعبة .. قصة (شيراز) وأمها والمأساة التى سببتها لنا (إلهام) بغيرتها الشديدة ..

ثم إنها بدأت تحكى التطورات الأخيرة .. وأنهت كلامها قائلة إن هناك ما يدعوها للاعتقاد أن (شيراز) قد عادت تبحث عنا ...

(عبير) كانت أول من تكلم .. فصرخت فى استبشاع :

ــ « كفاك يا (إلهام) أرجوكِ .. لقد حاولت نسيان هذه القصة .. وكدت أنجح لولاك .. ! » .

وهزّ (مدحت) رأسه فى استخفاف :

ــ « ألهذا طلبتِ لقاءنا ؟ .. كنت أظن الأمر أشد هولا ! » .

أما عن (عماد) فلم يأت باعتراض معين .. ثم إنه رفع رأسه نحونا فى قلق وهمس :

— « لم أرد أن أخبركم كى لا تقولوا إننى معتوه .. لكن ما دمتم ترون ذلك وتشاركوننى الرأى فإننى .. » .

قلت له فى غيظ :

— « عم تتحدث بالذات ؟ » .

ابتلع ريقه متحاشياً نظراتنا .. وغمغم :

— « عن (شيراز) بالطبع .. لقد رأتها ابنتى منذ خمسة أيام ..! » .

— « هكذا ؟.. وهل دعتها لمشاطرتها اللعب ؟ » .

— « كان هذا عسيراً ... » .

ثم رفع عينيه إلى وجهى .. وأردف :

— « تقول ابنتى إن الفتاة التى قابلتها كان لها نابان حادان .. وكان لسانها مشقوقاً كالأفاعى ... !! » .

* * *

٦ ـ الملاك المفترس ..

تربعت على الفراش مرتدياً منامة (عماد) أدخن سيجارتى الأخيرة (سيجارة ما قبل النوم وليس الموت طبعاً) حين دخل (عماد) الحجرة ..

لما إن شاهد سحب الدخان حتى أخذ يلوح بيده فى الهواء كمن يختنق .. وهتف وهو يسعل :

— « ماذا أقول فى طبيب يدخن كأوتوبيس الأرياف ؟ » .

— « نفس التعليق السمج الذى لا أسمع غيره .. إننى أدخن لأننى ضعيف الإرادة مزعزع الشخصية مختل النفسية .. فهل هذا ما تريد قوله ؟.. » .

— « بالحرف الواحد ..! » .

— « إذن قد أرحتك من الثرثرة .. والآن هلم اجلس وقل لى ما يدور بخلدك .. » .

تربع على الفراش جوارى وبدأ يشرح لى مخاوفه ..

كان الليل قد انتصف حين اندسّ تحت الغطاء جوارى فأدركت فى هلع أنه سينام معى على سبيل الترحيب !..

إنه بيته فلن أجرؤ على أن أطرده من الحجرة لينام في أي مكان آخر .. وزوجته تغفو مع ابنته في الفراش الآخر باعتبار هذا هو التنسيق الوحيد الممكن حتى لا ينام أحدنا على الأرض ! .. ، وبعد دقائق بدأ صوت شخيره المزعج فأيقنت أنه لا نوم في هذه الليلة السوداء ...

* * *

تك تك ! .. تك تك ! .. خ خ خ خ خ ! .. تك تك ! .. خ خ خ !

طريف هو امتزاج صوت شخيره مع صوت محرك الساعة .. والتزامن المثير للإعجاب .. أحداث يومي كلها تتشكل في الهواء الأسود كأنه شاشة وهمية تسقط عليها أشعة وعيي ..

و...... صرير الباب ...

ظل يرتمي داخلاً الحجرة .. ثم (سيلويت) ابنته يملأ فتحة الباب المضيئة .. ماذا أتى بها ها هنا ؟.. إنها حجرتها على كل حال ولربما نسيت شيئاً ما من كتب دراستها أو حاجياتها وجاءت لتأخذها في هدوء دون أن تزعجنا .. ها هي ذي تتسلل في بطء إلى جوار الفراش ..

صوت حفيف ثوبها الطويل .. وصوت قدميها الحافيتين .. وصرير الباركيه ...

تأملت في شرود شعرها الطويل المنسدل على كتفيها يتلألأ في ضوء الصالة الخافت .. و...

وهنا أدركت أن هذه ليست ابنة (عماد) ..!..

إنها ــ بالتأكيد ــ أطول قامة منها .. و(سارة) ابنة (عماد) لا تملك سوى بعض خصلات الشعر القصير على جانبي جمجمتها ..!..

توقف قلبي عن الخفقان ...

إن هذه الفتاة ــ أو هذا الشيء ــ يقترب بتؤدة من الفراش .. من الناحية التي أنام عندها .. إنني الآن أراها بوضوح ...

كانت هي (شيراز) !...

فـ .. فـ .. فتحت فمي لا .. لأصرخ لـ .. لكن الكلمات ــ بالطبع ــ انحشرت في حلقي .. ثم ...

ساد الظلام برهة عرفت بعدها أنني فقدت الوعي لجزء من الثانية .. لكني حين عدت لعالم الواقع كانت بعد هناك واقفة جوار فراشي ترمقني بعينين زرقاوين شفافتين ..

ــ « (رفعت) ..!.. ما زلت تذكرني .. » ؟



إن هذه الفتاة ، أو هذا الشىء ، يقترب بتؤدة من الفراش ..

— « .... ! » .

— « يجب أن تنقذنى ..!.. ألا ترى أننى أتحول لمسخ ؟! » .

وفى بطء فتحت فاها .. لسان مشقوق كلسان الأفاعى يتزلق ما بين صفين من الأنياب البيضاء اللامعة ..

— « يجب أن تفعل شيئا .. أرجوك !! » .

سأصرخ .. هذه المرة سأصرخ ولن تحتبس الحروف فى حلقى .. أصرخ .. أصرخ ..

استيقظ (عماد) مفزوعا فما إن رأى ما رأيت حتى فهم على الفور ما هنالك .. وكانت مشاركته — ذلك الأبله — فعالة حقًا لا احتضننى فى هستيريا وشرع يصرخ معى ..!

صراخ .. صراخ .. صراخ ..

نور الغرفة يُضاء .. وزوجة (عماد) وابنته تقفان على الباب ترمقاننا فى جزع ودهشة ...

نظرنا حولنا فلم نر الفتاة ...

اختفت .. تبخرت تماما ...

طفقنا بكلمات مبعثرة نشرح للزوجة ما حدث .. شبح فتاة كنا نلعب معها فى الطفولة برغم أنها كانت قد توفيت .. الأمر الذى لم يقنعها كثيرًا فى الواقع ..

ـ « يا فرحتى !.. رجلان ناضجان مثلكما يصرخان بعد منتصف الليل كالندابات .. وكل هذا لأنهما يخشيان الظلام ! » .

ـ « ليس الأمر كما تتصورين يا (فايزة) .. لقد رأيناها معًا فى نفس الوقت .. » .

مصمصت بشفتيها وتثاءبت ثم أمسكت كف ابنتها عائدة إلى حجرة النوم .. ولم تنس أن تسألنا عما إذا كنا نرغب فى ترك النور مضاء ..

بالطبع نرغب ..... !

* * *

فى الصباح اتصلت بـ (مدحت) لأخبره بما حدث أمس فوجدته فى حال سيئة جدًا .. فـ (شيراز) ـ كما قال ـ كانت هناك .. تنتظره جوار باب دورة المياه وكانت تضحك برقة ..!

أما (إلهام) فاكتفت بأن أكدت ـ فى فتور ـ أن (شيراز) ظلت تجوب صالة دارها طيلة الليل ..! ، وأنها ـ حين أيقظت زوجها ـ لم تجد للفتاة أثرًا وصارحها زوجها بأنها حقًا مخبولة ...

إن ما حدث لا يترك مجالاً للشكوك ...

إن اللعينة ـ (شيراز) لا (إلهام) ـ تحوم حولنا وتطاردنا ..

كأنها أدركت أننا التقينا بعد كل هذه الأعوام ...

كأنها تريد منا شيئًا ...

كأنها تطلب منا أن نعود إلى البيت ..

* * *

وعند (عماد) التقينا ... كانت (إلهام) قد جاءت مع زوجها الذى بدا غير مصدق لكل هذا السخف ..

لكنه حين عرف أننا جميعًا رأينا الفتاة أمس وفى نفس الظروف تقريبًا بدأ يهتم .. وعلى وجهه الأشيب الوقور ازدحمت تجاعيد القلق .. لا توجد هلوسة جماعية على الأقل بالنسبة لأشخاص متباعدين ... وهكذا دار الحوار بيننا ..

كان السؤال الأول الذى سألته (عبير) هو : لماذا عادت (شيراز) ؟..

الإجابة سهلة : عادت لأنها تريد شيئًا ما ...!

السؤال الثانى : ما هو هذا الشىء ؟..

الإجابة : لا ندرى .. ليتها تحدثت صراحة .. لكنى أضفت هنا أنها طالبتنى بإنقاذها قبل أن تتحول إلى مسخ .. وهذه نقطة هامة ..

السؤال الثالث : ما سر التبدل البشع فى مظهرها ؟..

الإجابة : لأنها ـ كما قلنا ـ فى سبيلها للتحول إلى مسخ ..

السؤال الرابع : لماذا نهتم بكل هذا ؟..

الإجابة : لأنها تطاردنا .. ومن الواضح أنها لن تتوقف عن ذلك .. ولا أحد منا قادر على ممارسة حياة طبيعية منتجة فى وجود شبح فى داره .. فضلاً عن أننا جميعًا سنصاب بالخبال خلال أيام إذا استمر الحال على هذا المنوال ...

السؤال الخامس : وماذا سنفعل ؟..

الإجابة : لا شىء .. إن (شيراز) هى التى ستتخذ الخطوة الأولى ..

فقط علينا أن نبقى متلاصقين وعلى اتصال ...

لا نعتقد أن (شيراز) ستؤذينا .. فقط ستكتفى بتعكير صفو حياتنا وإصابتنا بجلطات فى المخ والشرايين التاجية ...

لكنها أحبتنا .. نحن متأكدون من ذلك ...

قالت (إلهام) فى غيظ أثار دهشتى :

— « كنتم جميعًا تحبونها .. خاصة السيد (رفعت) .. » .

هززت رأسى فى ارتباك ودمدمت :

— « لم أكن قد رأيت عيونًا زرقاء فى حياتى !.. هذا كل شىء ! » .

— « عذر أقبح من ذنب ... » .

* * *

أطفال تغمرنا النشوة ...
نتبادل ألفاظًا سكرى ..
ألتذ براءة ضحكتها ..
أجتز عبير سذاجتها ..
وتكافح كى تبدو أنثى ..
وأجاهد كى أبدو رجلاً ...! » من قصيدة قديمة لـ د. (رفعت) » .

سألت (عماد) وأنا أنتزع آخر سيجارة فى العلبة :

— « لم نعرف بعد من يقطن البيت الآن ؟ ولا مالكه .. » .

هز (عماد) رأسه .. وداعب شعر ابنته التى تلهو على البساط ببعض المكعبات الخشبيه .. وقال :

— « بعد وفاة الأسرة آلت ملكية البيت لأحد الورثة المقيمين فى الخارج .. ولم يره أحد — ولا أبناؤه — طيلة هذه السنين ... إن سمعة البيت سيئة ولن يدهشنى ألا يكون قد وجد مشتريًا ... » .

— « ولكن .. لابد أن هناك شخصًا ما يُعنى بالبيت .. محاميًا أو خفيرًا أو أحد الأقارب ... ما الذى يمنع أى معتد من أن يقتحم البيت ويستولى عليه ؟ » .

— « على الأقل لن يكون من أبناء (المنصورة) ..
فكلهم يعرفون هذا البيت ويخشونه كالموت ذاته .. » .

ساد الصمت برهة .. ثم إننى نظرت إلى (مدحت) وسألت :

— « هل عرفتم تفاصيل أكثر عن الحادث الذى أودى بالأسرة ؟ » .

قال (مدحت) وهو يضع ساقًا على ساق :

— « إن القصة قديمة جدًا وقد دخلت فى قاموس الأساطير منذ زمن .. لكن لا أحد يعرف سوى أن الأسرة فقدت عائلها .. ثم وُجدوا جميعًا موتى ..
ويقال إن اللعنة حلت بالدار من لحظتها ... » .

— « إنها القصة القديمة إذن .... » .

ثم إننى ألقيت برأسى للوراء وتنهدت ..

— من الصعب علىّ أن أصدق كل هذا .. أنا بالذات محارب الخرافات القديم .. أقابل شبحًا بل وأطالب بإرضائه ..

كانت ذكرى (شيراز) قد تبخرت تمامًا ولم تعد تزور وعيى ، وحتى حين كانت تزوره فى ليالى الشتاء الباردة كنت أقول لنفسى إن هناك (تفسيرًا ماديًا ما) لكل هذا ...

منذ أعوام لم يكن كبريائى وصمود منطقى العلمى قابلين للتزعزع وحين اصطدمت بالمذءوب والنداهة وآكل البشر و (الزومبى) و (ميدوسا) وجدت دائمًا ذلك التفسير المادى ..

لكن وحش (لوخ نس) و (العساس) و (الفرعون الغاضب) أحدثوا شروخًا فى جدار هذا المنطق الصلب ..
واليوم ها هى ذى (شيراز) تعود لتؤكد لى أن كل شىء ممكن ، وأن ضيق الأفق ليس هو من يؤمن بعالم ما وراء الطبيعة .. بل هو من لا يؤمن به ..

عجيب هذا الكون !.. غموض قاس أليم .. والمصيبة أننى سأموت يومًا دون أن أفهم .. ودون أن أتعلم ..
وستظل علامات الاستفهام خالدة تؤرق منام شاب آخر يحسب نفسه ذكيًا .. وستؤرق منام أحفاده وأحفاد أحفاده إلى يوم الحساب ..!

وفجأة .. وفى الضوء الخافت المخيم على غرفة الجلوس لمحت وجوه الجالسين حولى تشحب ...

نظرت لأرى ما أثار رعبهم فوجدت ...

كانت (شيراز) واقفة عند مدخل الحجرة ووجهها خارج دائرة الضوء ..!

وسمعت ابنة (عماد) تزأر وقد وقفت فى هلع نـاثرة مكعباتها الخشبية من حولها .

ـ « (بابا) .. إنها نفس الفتاة !.. لقد عادت ! » .

تصلبت أجسادنا جميعًا وشلت أفكارنـا .. بعد لـم نستطع استيعاب فكرة أننـا نرى شبحًا وأن هذا الشبح يقف الآن معنا فى غرفة واحدة ..

كانت تتحرك ببطء .. ووجهها يدخل دائرة الضوء .. الآن نراه .. لن أصفه لك تاركا الأمر لخيالك لكننى فقط أزعم أنه أبشع وجه رأيته فى حياتى ..

كانت الفتاة صادقة فى ما قالته ...

إنها تتحول فعلا إلى مسخ .. وبسرعة لا تصدق .. ومن أعمق أعماق الهاوية حيث أرواح المعذبيـن جاءنا صوتها المتحشرج الباكى :

ـ « أنتم لم تجدونى حين أتيت لكم طالبة العون .. » .

ونظرت بعينيها الحمراوين لى وهمست :

ـ « الويل لكم !.. الويل لكم ! » .

* * *

٧ ــ فلندخل البيت ..

انقضى الأمر بعض الوقت حتى تفيق (عبير) من إغمائها ، وتكف (سارة) عن الصراخ الهستيرى ، ويستعيد (عماد) ترابط كلماته ، ويستعيد قلبى انتظام خفقاته ...

وحين عادت المياه الى مجاريها كانت (عبير) أول من تكلم .. فصاحت فى هستيريا :

ــ « ماذا تريد هذه الملعونة منا ؟ .. كيف ننقذها ؟ » .

قالت (إلهام) وهى تبلل وجه (عبير) بمنديل مبتل :

ــ « من الواضح أن المشكلة تبدأ وتنتهى فى البيت ... » .

قال (مدحت) فى ضيق صدر :

ــ « إذن ندخله ! » .

هب (عماد) مذعوراً .. فالفكرة لم تكن واردة لديه أصلا . ثم رأى أن الحكمة تقضى بألا يبدو مذعوراً إلى هذا الحد .. فقال مبتلعاً ريقه :

— « لقد أقسمنا أمام أبي — رحمه الله — على أن نبتعد عن البيت .. » .

راقت لي الفكرة وبدا لي أنها ستضفي على جبننا مسحة لا بأس بها من الشرف .. لكن (عبير) — عليها اللعنة — قالت بمجرد أن أفاقت تماما :

— « كان القسم يتضمن أننا لن ندخل البيت ما دام أبي حيا .. أما وقد توفاه الله فقد تحررنا من قسمنا .. يمكننا دخول الدار ! » .

حقا ؟.. يالك من عبقرية !.. كنت أخشى أن نُحرم من هذه المغامرة الشيقة .. ألا بارك الله فيك ! ..

بلل (مدحت) شفتيه الجافتين بلسانه .. وهمس :

— « إذن .. متى ندخله ؟! » .

* * *

ياله من سؤال !..

بالطبع في ضوء النهار يا (مدحت) .. وبالطبع بعد أن نتسلح بمسدس .. لا داعي لأن نحضر أحد خبراء الأرواح لأن المشكلة مشكلتنا ولن يساعدنا كثيرا .. ثم إن النصابين فيهم أكثر بمراحل من الصادقين ، ولا نود أن ندخل في مشكلة الهدهد اليتيم والنحلة المصابة بالبواسير ..

كذلك لا أرى داعيا لأن يصحبنا زوج (عبير) وزوج (إلهام) لأن البيت لا يعرفهما ولا يحمل لهما ذكرى .. ولربما أدى هذا إلى نتائج غير متوقعة ..

سندخل البيت في نفس التشكيل القديم وستكون كل من المرأتين خير رفيق للأخرى .. وسيكون التوءمان خير رفيقين لأختهما ...

هل نحمل شيئا آخر ؟..

في الواقع لا أدري باحتمالات ما قد نراه في الداخل .. لكني لا أرى مانعا من أن نحمل بطاريتين وحبلا ..

لماذا الحبل ؟.. لأنهم يحملون حبلا دائما في القصص يا سيدي !..

(عماد) يحمل سكين الجيش السويسري من طراز (فكتوريا نوكس) وهي تعطي فرصة استعمال مفك ومطواة وفتاحة زجاجات .. إلخ ..

معي مصحف صغير الحجم .. و .. ماء وطعام ؟.. لا أدري يا (إلهام) فلا أظن المسألة تحتمل كل هذا التعقيد .. لكن .. لم لا ؟.. احملي حقيبة صغيرة بها بعض المعلبات والخبز وزمزميات ماء .. كلا !.. لا داعي لعمل شطائر كفتة أو لحم بارد .. فلسنا ذاهبين إلى حديقة الحيوانات بالطبع ...

هل أنتم مستعدون ؟..
هل كل شىء على ما يرام ؟..
إذن هلموا ندخل البيت ...!

* * *

مرة أخرى رائحة الفجر المشبعة بالمازوت الذى لا تعرف مصدره ..

الضباب يحيط بالبيت الجاثم كوحش أسطورى على حافة النيل ..

صوت الخشب يتهشم تحت أقدامنا والبيت يكبر .. يكبر ..

ومرة أخرى تنسلّ كقطط كبيرة متحفزة نحو عصفور غافل ..

لماذا اخترنا الفجر ؟.. سؤال غريب .. بالطبع لأنه يبعدنا عن عيون الفضوليين الذين سيدهشهم أن يروا ثلاثة رجال وامرأتين يدخلون بيتًا مهجورًا .. ولأن الفجر هو الوقت الذى قابلنا فيه (شيراز) أول مرة .. ولأن الفجر هو الوقت الوحيد الذى يجمع مابين أسرار الليل ووضوح النهار .. سترى نفس أشباح الظلام ولكن فى ضوء الصباح ...

ـــ « نسيت أن أحضر ثومًا ! » .

قلتها وأنا ألهث .. فسألنى (عماد) فى حيرة :

ـــ « ثوم ؟.. من أجل الطهى ؟ » .

ـــ « بل لقتل مصاصى الدماء إن وُجدوا !.. تعلم أن لى خبرة فى هذه الأمور ! » .

قلتها فى سخرية متوقعًا أن يموتوا ذعرًا .. لكن (عبير) مدت يدها الى حقيبتها وأخرجت سكينًا لها لون فضىّ براق .. وسألتنى ببراءة :

ـــ « هل هذه تناسبك ؟.. قرأت أن مصاصى الدماء يخشون الفضة كثيرًا ! » .

ـــ « يالك من عبقرية !... » .

الواقع أننى نجحت فى إرعاب نفسى حتى الموت ، ولولا بقية من حياء لوليتُ الأدبار ...

هاهى ذى بوابة البيت الصدئة والنباتات الشيطانية تلتف حولها ..

ـــ « لكنها مفتوحة ! » .

كذا صرخ أحدنا ـــ ربما أنا ـــ وهو يتصلّب أمام البوابة العجوز ..

قال (مدحت) وهو يرمقنا بنظرة ذات معنى :

ـــ « هذا طبيعى .. إن البيت يتذكرنا بعد كل هذه الأعوام .. وينتظرنا ! » .



نعم يارفاق !.. لقد حدث ما كنتم تنتظرونه فى استمتاع سادى مرعب ..

انتصب شعر رأسى – أو ما تبقى منه – وتلاحقت أنفاسى .. وفى داخلى تردد صراخ ملاكى الحارس : لا تدخل !.. بربك لا تدخل !.. اركض بعيداً وكأن الشيطان يطاردك ...

لكن هذه حقيقة واقعة ..

إنهم يجتازون البوابة الواحد تلو الآخر .. هم خائفون لكنهم لم يتراجعوا .. والآن جاء دورى .. يخيل لى أن كل قصص الشجاعة فى التاريخ جاءت من أناس خشوا أن يبدوا جبناء ...

والآن هأنذا أجتاز البوابة .. ربما لأول مرة منذ عشرين عاماً .. و ...

كررررررررريك !...

هذا الصوت ...

نعم يارفاق !.. لقد حدث ما كنتم تنتظرونه فى استمتاع سادى مرعب ..

لقد انغلقت البوابة خلفنا وبمجرد أن عبرتها أنا ..!

* * *

– « لا توجد مشكلة .. نستطيع تسلق السور فى أية لحظة .. » .

قالها (مدحت) وهو يتأمل البوابة المغلقة ويحاول

فتحها .. لكنها كانت مغلقة بكالون (لانش) داخلى يحتم على من يريد فتحها أن يجد المفتاح ..

ـ « (رفعت) الأحمق جذبها خلفه أو اشتبكت بثيابه .. » .

صحت وقد تصاعد الدم الى رأسى :

ـ « وهل تجد هذا تصرفًا متوقعًا منى ؟! » .

ـ « إذن هو الهواء .. » .

رفعنا رءوسنا لأعلى .. ثم تبادلنا النظرات ..

إن الإجابة متوقعة وهى أنه لا توجد نسمة هواء واحدة ..

إن من أغلق البوابة هو بنفسه من ينتظرنا هنا ..

قلت وأنا أشعل سيجارة :

ـ « ما رأيكم ؟.. يمكننا الانتظار حتى يأتى أحد المارة فنستغيث به لإخراجنا .. أو نحاول تسلق السور الحديدى ، .. لا نريد التورط أكثر داخل البيت بينما سفننا محترقة .. » .

ابتسم (مدحت) للتشبيه .. وقال :

ـ « لولا السفن المحترقة ما انتصر (طارق بن زياد) .. لا مفر الآن من التمادى إلى آخر الشوط .. » .

قالت (إلهام) مؤمنة على كلماته :

ـ « إن الاستغاثة بأحد المارة ستوقعنا فى مشكلة هى لماذا اقتحمنا هذا البيت ؟

هذا ـ بالطبع ـ مالم يظننا أشباحًا ويموت بالسكتة القلبية .. أما عن تسلق السور .. فأنا بدينة جدًا و (عبير) حامل فى الشهور الأولى وأنت يا د. (رفعت) مصاب بالربو وضيق الشرايين التاجية ـ كما قلت لنا ـ فكيف بربك تتسلق هذا السور ؟ » .

قال (مدحت) وهو يشير لساقه :

ـ « وأنا مصاب بكسر قديم لم يلتئم بشكل مرض .. » .

* * *

نظرت بعينيها الحمراوين لى .. وهمست :

ـ « الويل لكم !.. الويل لكم ! » .

* * *

عبر الأشجار العتيقة الملتفة حول نفسها ألمًا ؛ مضينا نشق الطريق نحو البيت ..

الحذر يحرق أطراف أعصابنا فلو أن عصفورًا غرد لوثبنا جميعًا مترين فى الهواء .. لكن العصافير ـ كما قلت لك ـ لم تكن تدخل هذه الحديقة ..

ها هو ذا مدخل الدار .. وجواره مطرقة على شكل قبضة اليد ..

لا أثر لكائن حي.. لكن الباب مفتوح !..

كدنا نندفع داخلين لولا أن هتف (مدحت) محذرًا :

ـ « لحظة !.. ليس هذه المرة ! » .

ثم إنه أخرج قطعة حبل من جعبته وربط طرفها بمقبض الباب .. ثم شد الحبل ليربط الطرف الآخر في جذع شجرة قريب ..

ـ « بالطبع ينتظر هذا الباب دخولنا لينغلق مثل الباب الخارجي .. لكننا لن نسمح بذلك ! » .

ثم نظر (مدحت) لي و (عماد) متسائلاً :

ـ « أعتقد أنه من الحكمة أن ينتظر أحدكما خارج الدار .. من الغباء أن ندخل جميعًا غير عالمين ما ينتظرنا بالداخل .. » .

ـ « ليس أنا .. » .

قلتها على الفور وقد رأيت بعين الخيال صورتي واقفًا على مدخل الدار أدخن سيجارتي العاشرة يعصرني القلق والرعب .. غير مسموح لي بالدخول ولا مسموح لي بالفرار ..

وهنا صاحت (إلهام) أنها ترغب بالقيام بهذه المهمة التي تبدو سهلة ..

ـ « لا تنسي إذا أنت رأيت ما يريب أن تصرخي .. » .

ـ « حتمًا .. » .

وفي صمت أضأنا بطاريتينا ودلفنا من الباب .. الظلام ورائحة الرطوبة والعطن .. والغبار يغلف كل شيء ..

هل تغيرت الموجودات عما كانته ؟.. لا أذكر .. لا أحد يذكر .. لا نذكر حتى الإضاءة التي كنا نرى الأشياء فيها .. هل كانت كهربائية أم إضاءة شموع ؟

غريب أننا لم نلحظ ذلك ..

سمعت (مدحت) يهمس في أذني :

ـ « أحمل مسدسك في يدك تحسبًا للمفاجآت .. » .

تحسست جيبي في حيرة .. ثم همست في أذنه :

ـ « لقد اختفى !.. تبخر !.. لا أدري كيف .. لكن لا تدع أحدًا يشعر بذلك في الوقت الحالي ! » .

....

* * *

٨ ـ إنه حىّ ! ..

كنا موقنين أننا سنراها ..

لكننا لم نملك أدنى فكرة عما سنشعر به لو حدث ذلك ..

فى أعماقنا تمنينا أن تكون قد رحلتْ .. لم يكن أحدنا راغبًا فى رؤية ذلك الوجه الشائه مرة أخرى خاصة على ضوء البطارية الخافت باعث الظلال ..

ها هى ذى (عبير) بقامتها الناحلة تنزع عن وجهها خيوط العنكبوت الكثيفة .. و (عماد) يرتجف كالعادة .. وأنا أتظاهر بالثبات .. أما (مدحت) فهو أكثرنا جرأة واقتحامًا ، لهذا تحول إلى قائد مرتجل لجماعتنا الصغيرة ..

المائدة الطويلة حولها مقاعدها الكابوسية .. والمزهرية العملاقة والشمعدان ..

الستائر المتدلية .. تماثيل المستحمات البرونزية تتلوى فى أوضاع ، حاول المثّال أن يجعلها مغرية .. المرايا العديدة التى فقدت طبقة طلائها ..

همست فى أذن (مدحت) :

ـ « هل تذكر قصة (شارلزديكنز) الشهيرة (توقعات عظيمة) ؟.. الآنسة العجوز التى ظلت قاعة المائدة فى دارها خمسين عامًا بحالتها حتى تورتة العرس والمشروبات .. لقد نسيت اسمها ..

ـ « لا أقرأ هذا الهراء الذى تقرؤه .. وليس الوقت مناسبًا لاستعراض ثقافتك .. » .

ـ « لا حيلة لى فى هذا .. إن كل موقف فى حياتى يذكرنى بموقف مماثل فى عمل أدبى .. و..... » .

إن (عبير) متصلبة كالتمثال .. فماذا حدث ؟..

دنوت منها .. ونظرت لعينيها متسائلاً عما هنالك ..

همست وهى ترمق مقعدًا إلى جوار (كونسول) صغير مذهب :

ـ « (رفعت) .. » .

ـ « ماذا ؟ » .

ـ « إنه حىّ ! » .

* * *

كفاك سخفًا يا (عبير) .. بالله عليك كفى عن هستيريا النساء لحظة واحدة .. لقد رأيت المقعد يتحرك .. فلنقل إنك اصطدمتِ به .. فلنقل إنها رقصة الظلال .. فلنقل إنك حمقاء .. فلنقل أى شىء ..

لكن لا تزعمى لحظة أنه يتحرك حركة ذاتية ..!

صاح (مدحت) فى ضجر :

— « يا إخوان .. لقد دخلنا هذه الدار لنواجه أشباحًا فليس غريبًا أن ترى كرسيًا يتحرك ..!.. إن من يذهب لصيد النمر لن يضايقه كثيرًا أن يرى آثار مخالبه على الأرض ... » .

وهكذا ...

شرعت — وأولاد خالى — نفتش الطابق السفلى على ضوء البطاريتين فلم نجد شيئًا غير عادى ...

مجرد بيت لم تدخله قدم منذ عقود ...

وهنا صاح (عماد) وهو يشير للأرض مسلطًا ضوء البطارية :

— « انظروا ! » .

فنظرنا ...

إلى الأرض المكسوّة بطبقة كثيفة من غبار الأعوام نظرنا .. كانت هناك آثار أقدام .. أقدام صغيرة عارية كأنها لطفلة مشت حديثًا فى هذه القاعة ..

(شيراز) كانت حافية فى أغلب الأوقات التى عرفتها فيها .. ومن الغريب أن هذا لم يبد شاذًا لنا قط ..

لو كانت هذه آثارها فإن لها وجودًا ماديًا ..

ولكن .. هذا حتمى .. لقد كانت تلعب معنا ونلمسها ونجرحها .. فهى لم تكن طيفًا بل كتلة إكتوبلازمية متجمدة ..

إن (شيراز) هنا ..

وبالتحديد من فترة قصيرة جدًا ..

استنتاج لا بأس به .. أما الاستنتاج الأهم فهو أنها — آثار قدميها — تتجه فى ثقة إلى الطابق العلوى ..

همس (مدحت) وقد غلبته الرهبة :

— « إذن سنجدها هناك .. ! » .

— « بل هى تريد منا أن نذهب هناك ! » .

* * *

— « سأموت إذا ما طلبت منى ذلك .. » .

— « إذن ...... مُت !! » .

* * *

قال (مدحت) وهو يتحاشى النظر لنا .

— « من الحمق أن نصعد جميعًا .. بل الأفضل أن ينتظر اثنان منا هاهنا حتى ينجدا الآخرين فى حالة الخطر .. ومن يدرى ؟.. ربما كان الاثنان اللذان سيصعدان هما منقذا الآخرين اللذين سيبقيان هنا ! » .

لهذا السبب — ولأننى أكره دور المنتظر القلق — قررت

أن أكون من الصاعدين للطابق الأعلى .. وكانت المشكلة هى الحاجة الماسة لشخص جرىء مثل (مدحت) فى المكانين معا .. ثم استقر الرأى على أن يصعد معى ..

على ضوء البطارية نرى درجات السلم الخشبية العتيقة مغطاة بأطنان من الغبار وآثار القدمين الصغيرتين ..

نشم رائحة الأعوام .. ونسمع تهشم الخشب الرطب .. ونشعر باقتراب كارثة من نوع ما ..

* * *

أصدقاء (شيراز) ؟.. مرحبًا بكم .. إن أصدقاء ابنتى هم أبنائى ..

* * *

إنه الطابق العلوى حيث غرف النوم ..

سنقوم بدور ثقيل على النفس هو فتح هذه الأبواب الموصدة بابًا بابًا باحثين عن شىء لا ندرى كنهه ..

الباب الأول .. فراش عتيق وستائر مغلفة بالعنكبوت و... جو الغرفة يوحى بأنها غرفة نوم امرأة .. ربما الأم بالذات ..

الباب الثانى .. لا ينفتح .. موصد بالمفتاح من الداخل أو الخارج لا أدرى ..

الباب الثالث .. غرفة نوم غارقة فى الغبار وريح القدم .. والوطاويط .. و ..

ماذا ؟.. وطاويط ؟!..

بالطبع !.. لقد نسينا أمرها ونسينا أن هذا البيت هو بيت الأحلام بالنسبة لها .. وها هى ذى تلك الثدييات المجنحة البشعة تنطلق مرفرفة بأجنحتها السوداء فى أرجاء الغرفة وقد أقلق سباتها صوت حركتنا ..

أغلق (مدحت) الباب على الفور قبل أن تخرج هذه الكوابيس الحية لنا ..

* * *

كل ما أرجوه هو أن تعودوا إلىّ من وقت لآخر ..

* * *

وهنا دوى الصوت ..

فى البدء ظننا أن المنزل ينهار فوقنا ثم أدركنا — بعد ثوان — أن هذا صوت باب ينغلق بشدة فى الطابق السفلى ..

تبادلت و (مدحت) نظرة عدم فهم .. ثم فجأة أدركنا ما حدث ..

باب المنزل ! .. هذا بالتأكيد هو صوته !.. لقد انغلق علينا لتصير سجناء فى هذه الدار الرهيبة ..

همست بصوت كالفحيح :

ـ « لكن كيف ؟.. إنك قد ربطته بعناية .. » .

ابتلع (مدحت) ريقه .. وهمس :

ـ « المشكلة هنا أن هناك شيئاً قد حدث لـ (إلهام) بالتأكيد !.. ما كانت لتترك الباب ينغلق وهى جواره .. » .

قلت وقد أدركت خطورة الموقف :

ـ « و (عبير) و (عماد) ..!.. لو أنهما بخير لما انغلق الباب ! » .

إذن هذا هو ما حدث ..

إن حاجتنا لتأمين خط رجعتنا قد جعلتنا نتجزأ إلى مجموعات صغيرة .. (إلهام) على الباب .. (عبير) و (عماد) بالطابق السفلى .. أنا و (مدحت) بالطابق العلوى ... وهكذا تركنا جيوباً معزولة فى عدة أماكن ..

ترى ماذا أصاب الآخرين ؟..

هرعنا جرياً إلى الطابق السفلى فوق الدرجات العتيقة .. كان ضوء النهار قد بدأ يتسرب من شقوق النوافذ عبر تمزقات الستائر .. وقد غدا بإمكاننا أن نتبين ما يدور حولنا دون جهد كبير ودون استعمال ضوء الكشاف ..

لم يكن هناك أثر للبائسين ..

وحين جرينا إلى باب الشقة نتحسس مقبضه ؛ أدركنا أنه مغلق بإحكام .. ومن المستحيل فتحه ..

إذن نحن معزولان فى هذا البيت ..

لا مخرج لنا .. ولا رفيق ..

ولكن .... أين ذهب الجميع ؟

* * *

ـ « (شيراز) .. أنا خائف .. » .

ـ « خائف وأنا معك ؟ » .

* * *

ـ « لكننا لم ننته بعد .. لن ينجح البيت فى حصارنا .. نستطيع دائماً تهشيم النوافذ الخشبية المضعضعة والفرار قفزاً من فوق سور الحديقة .. » .

قالها (مدحت) فى توتر محاولاً أن يتماسك ..

قلت فى لهفة :

ـ « إذن .. لنفعل ذلك الآن .. » .

كان المزلاج الخاص بمصراع النافذة صدئاً متجمداً فى مكانه . لهذا تشبثت بقوائم الخشب وشرعت أهزها فى جنون محاولاً تهشيمها ..

كان ذلك حين دوت الصرخة ..

عميقة كانت .. مكتومة كانت .. قادمة من آبار

الجحيم حيث تحترق أرواح الخطـــاة وأجســادهم .. وشعرت بالشعر على ساعدىّ ينتصب ...

ثم تبادلت نظرة مع (مدحت) حين عرفنا مصدر الصرخة .. وفى نفس اللحظة همسنا بصوت كالفحيح :

ـ « عماد ! » .

شرعنا نثب درجات السلم إلى أعلى ثلاث درجات فى كل وثبة غير عابئين بخطر تهشم الخشب العطن تحت كعوبنا ... كان الصراخ مستمراً آتياً من إحدى غرف النوم القديمة التى لم ندخلها بعد .. وبركلة واحدة فتح (مدحت) الباب لنرى على ضوء البطارية آخر مشهد توقعناه ..

كان هناك حبل يتدلى من سقف الغرفة .. وكان هنـاك شىء ما معلق بالحبل يتلوى كالأفعى .. وكان هناك فراش عتيق الطراز .. أما على الأرض فكانت هنـاك أشياء معدنية بارزة لأعلى ..

استغرقنا ثلاث ثوان لنفهم .. وثلاث ثوان أخرى لنصرخ هلعاً ..

وفى هذه اللحظة لمحناها ... (شيراز) ..!

كانت متربعة كالقطة فوق الدولاب الأثرى الموجود بطرف الحجرة ..وكانت قدماها العاريتـان الدقيقتـان

متدليتين على حافة الدولاب وهى تحركهما فى استمتاع .. والظلال تكسو وجهها لكننا كنا نعرف أنها هى ..

وسمعنا ضحكتها الرقيقة العذبة تغرد :

ـ « لقد تأخرتم كثيراً فى المجىء يا أحبابى ! » .

ثم إنها استرخت فى جلستها .. وأردفت :

ـ « هاهى ذى لعبة مسلية أخرى .. إن (عماد) معلق كما ترون إلى السقف بحبل متآكل فى الواقع .. حبل ضعيف جداً أكاد أسمع صوت تمزق أليافه .. صه !.. هل تسمعون ؟.. كرى كرى توك !.. هى هى !.. وحين ينقطع الحبل سيهوى .. فوق ماذا ؟.. فوق هذه النصال المعدنية المشرئبة لأعلى التى ستحيل جسده البدين إلى مصفاة ..! » .

وأخذت تضحك على حين رأينا على ضوء البطارية أنها لم تكذب فى حرف واحد ..

ـ « كرى كرى توك !.. هاهاها !.. اللعبة هنا هى : هل يمكنكم إيجاد طريقة لإنزاله قبل كرى كرى توك ؟.. إننا لم نله سوياً منذ أعوام .. ويبدو أننا سنمرح كما كان فى الماضى أو أكثر .. هى هى !! » .

الشيطانة !.. كان (عماد) يتلوى فى جنون متوسلاً لنا أن نفعل شيئاً .. ثمة خطاف مثبت إلى الحبل وطرفه

الآخر مشتبك فى سترته .. لا أدرى هل تتمزق سترته أولاً أم الحبل .. كل ما أدريه هو أن أمامه ثلاث دقائق أو أقل قبل أن ...

صحت فى هلع :

ـــ « كف عن التلوى كالأفعى أيها الغبى !.. إنك تزيد عمر الحبل قصراً ! » .

وأمسكت بيد (مدحت) فى جنون متوسلاً له أن يفعل شيئاً .. توقف تفكيرى تماماً ولم يعد لدىّ سوى الأمل فى أن يكون تفكير (مدحت) يقظاً ..

ـــ « (مدحت) !.. فلنحاول التقاطه حين يسقط .. أنا وأنت .. » .

دوّى صوت (شيراز) المرح البارد القاسى يذكرنا :

ـــ « دقيقتان .. ! » .

همس (مدحت) فى توتر :

ـــ « كلا .. إنه ثقيل الوزن وسيكون أثقل عند سقوطه .. ثم إنه لا يوجد بين النصال مكان يسمح لنا بوضع أقدامنا ـــ سينتهى الأمر بتمزيقنا جميعاً .. » .

ـــ « إذن نحاول تسلق الجدار وإنزاله .. » .

ـــ « كلا .. كلا .. الجدار أملس .. وحتى إذا ... » .



كان (عماد) يتلوى فى جنون متوسلاً لنا أن نفعل شيئاً .. ثم خطاف مثبت إلى الحبل وطرفه الآخر مشتبك فى سترته ..

ولم يكمل عبارته لشرود ذهنه لكننى فهمت .. حتى إذا تسلقنا الجدار فكيف نجذبه إلينا .. وكيف نرفعه ؟.. لابد من فكرة أفضل .. كرى .. كرى ! » .

— « دقيقة ... ! » .

الثوانى تمضى .. ولم نجد فكرة مناسبة .. كرى كرى !

— « ثلاثون ثانية ..! » .

* * *

٩ — ألعاب شيطانية ..

فجأة صرخ (مدحت) :

— « هلم يا (رفعت) !.. احمل السرير معى ! » .

— « ولكن .... » .

— « أسرع !.. سنضعه فوق النصال كشبكة يهبط فوقها (عماد) عند سقوطه .. هلم معى .. ! » .

وثبنا إلى السرير الثقيل وحملناه حتى كانت جذور عنقينا تنفجر — لكن لا وقت للمزاح الآن — ونقلناه لاهثين إلى الموضع الذى سيسقط فوقه جسد (عماد) بعد ثوان .. كرى .. كرى !

— « ربع دقيقة !.. » .

أطلق (مدحت) سبة .. ثم ألقى بالسرير فى المكان المناسب له .. تساءلت فى تشكك :

— « ولكن هل يتحمله الفراش ؟.. هل ستحمى الملة جسده حقًا ؟ » .

ارتجف ونظر لى زائغ العينين .. لا وقت لديه لاستبعاد

هذه الفكرة .. فلتنجح أو لتحل اللعنة على كل شىء .. سيان عنده الآن ..!

صوت (شيراز) الرفيق يدوى :

— « فكرة لا بأس بها .. لكن جسده الثقيل سيهوى مهشما الفراش لتنفذ النصال عبره .. كنت أظنكم أذكى من ذلك .. والآن دعونا نر مدى صواب فكرتكم .. هيه ! .. هو ذا الحبل يتقطع .. هيه !.. إنه يسقط .. يسقط ! » .

* * *

« لقد فعلت الطبيعة كل ما بوسعها كى تحذركم من أن ما يجرى فى هذا البيت مريب .. لكنكم لم تفهموا ... » .

* * *

ما إن هوى الجسد من السقف حتى أغمضنا عيوننا — تلقائيًا — متوقعين كارثة ...

لكننا — حين فتحناها — لم نجد كارثة .. بالأحرى لم نجد شيئا على الإطلاق .. لا (عماد) ولا (شيراز) ولا حبلا يتدلى من السقف .. لا شىء ! .. فقط الفراش فى موضعه الذى نقلناه إليه ...

كنا نلهث وفى حالة أقرب للجنون .. لكننا فهمنا ..

هى حالة هلوسة بصرية وسمعية شنيعة أدخلنا فيها هذا البيت اللعين ..

ولو كان شبح (شيراز) معنا فى الحجرة فلابد أنه دامع العينين من فرط الضحك على حماقتنا واندفاعنا الهستيرى من أجل سراب ..

تبادلت النظرات و (مدحت) ...

ثم بدأنا نردد عبارات السباب متوعدين الفتاة بالويل والثبور لو سقطت بين أيدينا .. سنكون أول بشريين ينجحان فى قتل شبح ...

* * *

وهنا سمعنا الأنين ..

كان قادما من الطابق السفلى ..

كأنه أنين امرأة حزينة فقدت أملها فى شىء ، .. ولم يكن فى مقدورنا إلا نهرع نازلين الدرجات الخشبية متسائلين عما هنالك ..

وهناك — عند ركن المدفأة — رأينا على ضوء النهار المتسرب من الخارج أشنع كابوس رأيناه فى حياتنا ..

(عبير) الناحلة الرقيقة مقيدة للجدار .. وعلى قدميها تلتف ثلاث أفاع شريرة المنظر لا توحى بالثقة ... وكانت البائسة — (عبير) طبعا — عاجزة عن التملص أو الحراك أو حتى الصراخ بصوت عال حتى لا تثير حفيظة الزواحف الملتفة حولها .

— « لعبة جديدة لعزيزتى (عبير) ! » .

كذا دوى صوت (شيراز) الرقيق فالتفتنا إلى مصدره ..

كانت واقفة فى أعلى السلم بثوبها الأبيض الطويل وهى تضم إحدى يديها إلى الأخرى فى شغف ..

صاح (مدحت) فى عصبية وهو يثب السلالم قاصدًا تهشيم رأسها :

— « أيتها الحدأة ! .. لقد ضقت ذرعًا ! » .

فى رقة وضعت إصبعًا على شفتيها محذرة :

— « شش ! .. إن هذه الأفاعى عصبية المزاج وشرسة جدًا .. وسامة ! . فلا تجازف بأن تلدغ إحداها شقيقتك الرقيقة فى ساقها .. لو كنت مكانك لبدأت التفكير فى كيفية إبعاد الأفاعى دون إثارة حفيظتها ..! » .

بدا كلامها مقنعًا لنا .. فعاد (مدحت) يهبط درجات السلم فى حذر .. ووقف جوارى شارد اللبّ ..

هذه المرة لا أرى حلًا لهذه الورطة .. إلا أننى همست :

— « بالتأكيد هى هلوسة كالمرة السابقة ..؟ » .

همس فى عصبية وعيناه لا تفارقان المشهد :

— « وماذا لو كان واقعًا ؟! » .

— « لا أدرى .. فى الحقيقة يبدو لى الأمر معقولاً وملموسًا إلى حدّ لا شك فيه .. » .

— « والعمل ؟ » .

كانت الأفاعى تلتف فى كسل وتراخ حول ساقى البائسة التى ماتت ذعرًا أو كادت .. شنيع هو الخوف الذى لا تملك حتى حقّ التعبير عنه ..

وهنا خطرت لى فكرة ..

انتزعت قطعة من قماش الستائر وأحرقتها بقداحتى ثم ألقيت بها مشتعلة على بعد متر من ساقى (عبير) ..

— « ماذا فعلت ؟ » .

— « الحرارة .. المفروض أنها تجذب الأفاعى .. والمفروض أن جسد (عبير) بارد كالثلج من فعل الأدرينالين .. أعتقد أن الأفاعى ستفضل الذهاب لترى ما هناك .. » .

بالفعل .. بدأت الأفاعى تفك قيودها من حول ساقى الفتاة .. وتزحف ببطء وتؤدة تجاه المصدر الحرارى الوحيد فى المكان .. يجب أن نسرع بإنقاذها الآن ، و .. فجأة ...

اختفى كل شىء .. اختفت (عبير) والأفاعى و(شيراز) .. لم يبق سوى قطعة من القماش المحترق ملقاة جوار المدفأة ..

إنها خدعة بصرية قاسية أخرى ..

إن البيت لم يزل طفلاً يصبو إلى اللهو .. اللهو المؤذى المزعج الذى ينسف أعصابنا نسفا ...

* * *

فجأة جذب (مدحت) ذراعى ..

معًا سمعنا صوت باب ينفتح فى بطء ..

أجفلنا وتهيأنا لأسوإ النتائج .. إلا أن الباب انكشف عن وجهى (عبير) و (عماد) الشاحبين .. خيل لنا أننا لم نر قط وجهين أجمل من هذين ..

— « (مدحت) .. (رفعت) ! .. أنتما بخير ! » .

وارتمت (عبير) فى حضن أخيها على حين عانقنى (عماد) كالملهوف وصرخ فى هستيريا :

— « سمعنا صراخكما فهرعنا ننقذكما .. فوجدنا .. » .

قلت وأنا أشعل سيجارة :

— « نعم .. نعم .. وجدتمانا على شفا الموت .. » .

— « كيف عرفت ؟.. كنت أنت ساقطًا على الأرض بين ذئب شرسة تنهش جثتك ..! » .

غريب هذا !.. تذكرت على الفور الكابوس الذى كان يزور هويدا ليلا وظننته من تأثير عشائها الدسم !.. إذن فتلك الحمقاء تملك — برغم كل شىء — بعض الشفافية ..

— « وكيف تصرفتما ... ؟ » .

— « أشعلنا مفرش المائدة لنفزعها إلا أن كل شىء تلاشى فجأة .. » .

— « هذا ما حدث لنا بالضبط .. وماذا عن (مدحت) ؟ »

صاحت (عبير) فى لهفة وبصوت كالعواء :

— « كان مسخ رهيب يطارده .. واستطاع الظفر به ثم ... » .

— « .. تلاشى كل شىء .. » .

هتف (مدحت) فى غل :

— « إن البيت اللعين يتسلى باللعب بأعصابنا .. وأقترح أن نغادره فورا قبل أن نجن ... » .

— « لقد جعلتنا (شيراز) يرى بعضنا البعض فى ورطات شنيعة .. كانت تتسلى بمشاهدة ردود أفعالنا ، إنها لم تفقد بعد روح الطفولة وإن شابتها نزعة سادية مذهلة .. » .

تقدم (مدحت) الى النافذة الموصدة وعاد يواصل ما كان بدأه من محاولة انتزاع المصراع .. وشرعت أزيد متاعبه متظاهرا بالمعاونة ..

حين دوت الصرخة ..

لقد صار هذا مملاً .. سأشعر بالقلق لو مرت عشر

دقائق فى هذا البيت دونما صوت ما .. صراخ أو أنين أو باب يتغلق أو حبل يتمزق ..

كانت قادمة من الطابق العلوى ..

بالتحديد عند نهاية (درابزين) السلم ..

كانت (إلهام) هناك تصرخ وتولول كقط داست قدمه سيارة .. وكان شىء ما يتقدم نحوها .. شىء ضخم لم نستطع رؤية وجهه لكننا لم نرغب فى ذلك قط .. فقد كان يمد يدين ضخمتين نحوها .. ويرتجف ..

ومن ذعرها كانت تتراجع للخلف .. للخلف ..

وفى الخلف كان (الدرابزين) المهشم منخفض الارتفاع ينتظر ..

وهنا سمعنا صوت (شيراز) المخملى :

— « والآن لعبة جديدة من ابتكارى .. إن المسخ يتقدم نحو (إلهام) وعليها أن تختار ما بين أنيابه أو السقوط من أعلى .. » .

كانت واقفة هناك جوار المسخ بثوبها الأبيض تبتسم وقد بدت كأنها مذيعة تقدم فقرة رياضية فى برنامج منوعات مسل ..

— « لاحظوا أنكم لن تستطيعوا الصعود إليها لأن درجات السلم تهشمت .. » .

وأشارت لما عنته .. كانت الدرجات التى صعدنا وهبطنا عليها مرارا قد تلاشت تاركة مكانها فجوات سوداء رهيبة ..

— « أما عن محاولة التقاطها عند سقوطها فمشكوك فيها .. إنها بدينة جدًا وستفلت بالتأكيد من بين أصابعكم مالم تسقط فوقكم محيلة أجسادكم إلى سجادة ! .. والآن دعونى أر ما ستفعلون .. إن (رفعت) العبقرى سيجد حلاً بالتأكيد .. ! » .

كانت (إلهام) تصرخ .. تتراجع للخلف فى هلع .. وتتوسل إلينا :

— « (مدحت) ! .. افعل شيئًا ..! » .

هاهى ذى حبيبة طفولتنا البدينة توشك على أن تلقى حتفها ونحن عاجزون عن إيجاد حل مناسب .. ولكن .. لماذا نجد حلاً ؟.. إنه وهم جديد آخر من أوهامها التى لا تنتهى ...

نظرت للآخرين فوجدتهم أقل توترًا من أى وقت مضى .. لن تخدعنا هذه اللعينة مرة أخرى — (شيراز) وليست (إلهام) طبعًا — إننا سنترك هذا البيت مهما حاولت استبقاءنا ..

— « (رفعت) !.. أرجوك !.. طفلاى ! » .

ضحكت (شيراز) فى تشفٍ :

ـ « هكذا يا (إلهام) .. لا أحد يرغب فى مجرد المحاولة ! » .

أشعلت سيجارة أخرى .. وشرعت أفكر على صوت الصراخ القادم من أعلى .. النار والثعابين .. الذئاب .. كانت كل هذه أوهامًا .. لكن الأوهام التى اشتعلت فيها النار تلاشت فجأة .. النار تبدد الأوهام .. وهاهى ذى سيجارتى مشتعلة ، و .....

(إلهام) هى التى وشت بنا لدى خالى وجعلته يجبرنا على أن نقسم وبهذا انتهت علاقتنا بالبيت .. (إلهام) مزقتها الغيرة فاندفعت تمزق عرى الصداقة البريئة الوحيدة فى حياة (شيراز) أو مماتها ..

(شيراز) عاشت وحيدة دون أصحاب سنوات لا أعرف عددها .. وإذن فهى تملك كل الأسباب كى تمقت (إلهام) ...

* * *

« أنتم جميعًا هنا من أجلها .. لا أحد يريدنى .. ولا أحد يعبأ بى ! » .

* * *

« مشكلتى هى أن (شيراز) لا تجد أصدقاء من سنها .. ما أسماؤكم يا أحبابى ؟ » .

* * *

(إلهام) تتقدم نحو الحافة ..

اللامبالاة على وجوه الأشقاء الثلاث ..

وهنا فهمت ..

وفى هلع صحت وأنا أثب نحو المكان الذى ستسقط عنده :

ـ « إن هذا ليس وهمًا !.. هذه هى (إلهام) حقًا .. وكل ما يحدث حقيقى .. لقد بددت النار كل الخيالات السابقة لكننى أشعلت سيجارتى وظلت الصورة مستمرة ! » .

ـ « ولكن ... » .

ـ « أسرعووا ... ! » .

وقبل أن نتفق على شىء وقفنا جميعًا أسفل المكان الذى تقف عنده .. ومددنا أيدينا لأعلى فى محاولة لا معنى لها لنعمل شىء ما ...

وهنا تهشم السياج الذى كانت تستند إليه (إلهام) .. ولمحنا جسدها البدين يهوى فوق رءوسنا كنيزك عملاق ..

* * *



لقد اشتبك جزء من الخشب الهشم فى ثوب (إلهام) فتدلّت ، كالثريا ، من أسفل (الدرابزين) فوق رءوسنا ..

١٠ ـ (شيراز) تتكلم ..

توقعنا الكارثة لكنها لم تحدث ..

وحين رفعنا رءوسنا ـ فى حذر ـ إلى أعلى وجدنا أن الحظ لم يتخل عنا بعد ...

لقد اشتبك جزء من الخشب المهشم فى ثوب (إلهام) فتدلت ـ كالثريا ـ من أسفل (الدرابزين) فوق رءوسنا .. كانت تصرخ وتولول لكنها ظلت حية على الأقل .. وقد صارت على ارتفاع ثلاثة أمتار فحسب عوضًا عن ثمانية !..

الحمد لله العلىّ القدير ..

ـ « (رفعت) !.. إننى ما ... أسقط ... » ..

كان طرف الثوب يتمزق ـ أو لعله الخشب ـ ببطء شديد .. سمعنا صوته وكنا على استعداد هذه المرة لتلقاها بين أذرعنا الممدودة .. صحيح أن محاولتنا قد ألغت نهائيًا آثار السقطة المدمرة لكنها كادت تمزق عضلاتنا .. وسقطنا على الأرض جميعًا شبه مهشمين ..

وإننى لأتساءل عن كيف يكون الأمر لو أنها سقطت من الارتفاع السابق فوق رءوسنا ؟..

نظرنا فوجدنا المسخ و (شيراز) ينظران لنا من أعلى ..

صرخ (مدحت) من حيث ارتمى على خشب الأرضية ملوحا بقبضته :

— « صبرا أيتها الشيطانة !.. لو وقعت فى يدى ! » .

لم ترد (شيراز) بل استدارت مع المسخ ببطء .. واختفت فى الظلام ..

صاح (عماد) فى حنق :

— « (رفعت) !.. ارفع كعب حذائك عن عنقى .. ! » .

— « ليس قبل أن تخرج كوعك من معدتى .. » .

ووجدت ذراعا مشعرة تلتف حول ساقى .. فصحت فى حنق أشد :

— « ذراع من هذه ؟ فليبعدها صاحبها عنى ... ! » .

— « أعتقد أنها ذراعى أنا .. كنت أظن الساق ساقى!» .

الخلاصة أننا استغرقنا بعض الوقت حتى نفهم حقيقة وضعنا وكينونتنا .. وحتى ننهض على أقدامنا ..

وحين وقفنا أخيرا — لاهثين مغبرين — كنا قد أدركنا ما حدث .. حقا كانت (شيراز) تحبنا ..

وحقا كانت بحاجة إلينا ..

لهذا — وحين تسببت (إلهام) فى انقطاعنا عن المجىء — قاست (شيراز) سنوات مريرة من الوحدة .. شنيعة حقا هى وحدة الأشباح بعيدا عن كل ما يربطهم بعالم الأحياء ..

ولظروف لا نفهمها بدأت (شيراز) تتحول إلى مسخ ..

من ثم صممت على الانتقام ممن كانت سبب عذابها وحرمانها من الصحبة الآدمية ، وكان هذا الانتقام المروع من (إلهام) يتلخص فى جعلها تلقى نهايتها المفزعة أمام عيون أصدقائها الذين لن يحركوا ساكنا !..

سيظنون كل هذا وهما آخر بعد أن اعتادوا الأوهام المماثلة .

أى تفكير مروع !.. وأية قسوة ..!

المشكلة الآن هى ماذا عسانا فاعلون بعد ذلك ؟..

من الواضح أنها تملك إيذاءنا فى أى وقت تشاء ..

وحتى لو هربنا — وهذا ليس صعبا — فمن يضمن لنا أن (إلهام) لن تواجه كارثة أخرى ؟.. ربما فى صالون دارها أو الحمام أو حتى فى الطريق العام ..

ثم — الأدهى — من أدرانى أنها لن تضغطنى فى

فلعنتها السوداء بعد ما أحبطت لعبتها الجهنمية ؟..
إن هذا منطقي وسأندهش لو لم تفعل ..

مشكلة الأشباح هي أن التنبؤ بما ينوون عمله مستحيل ..

— « أعتقد أن الوقت لا يسمح سوى بمغادرة البيت .. » .

— « والقفز من على السور الحديدي المرتفع ؟ » .

— « لن يكون هذا عائقا كبيرا .. سنجد حلا وقتها .. » .

وعدنا للمرة الثالثة نحاول تهشيم مصراع النافذة .. تشبث جيدا !.. هيه !.. إنه يلين .. استمر يا (رفعت) .. هيه !.. هان !.. هاهو ذا .. ! . كراشش !!.. تهشم الخشب واستطعنا أخيرا أن نرى نور النهار ونباتات الحديقة المحتضرة .. ولكن وأسفاه ! .. ثمة ثلاثة قضبان غليظة تقف حائلا بيننا وبين الخروج .. نسينا تماما أمر هذه القضبان ...

صاح (مدحت) في هستيريا :

— « لم ننته بعد .. سنهشم الباب الخارجي .. إنه ثقيل لكننا خمسة ويمكننا استخدام قطع الأثاث لذلك .. » .

نظرت إلى (إلهام) الدامعة وقد تشوشت ثيابها واختلطت خصلات شعرها بالغبار والعرق .. كانت ذاهلة تماما .. فقلت في تؤدة :

— « نحن أربعة فقط ..!.. لا تنس ذلك .. » .

وتعاوننا نحن الأربعة على حمل مائدة الطعام العملاقة .. كان ظهري يوشك على أن ينشطر شطرين .. وعروق عنقي تنفجر .. لكني تماسكت ..

هيا بنا ..!.. معا نركض — قدر الإمكان — نحو الباب الضخم .. و.. هوب !.. كانت الصدمة ضعيفة لكنها خلخلت أجسادنا وسقطنا جميعا على الأرض .. أما الباب فلم يبد أدنى استجابة !..

— « لا جدوى .. سنتحول إلى فتات قبل أن يتزحزح هذا الباب ! » .

هتف (عماد) في جنون :

— « إذن سنظل هنا حتى نموت جوعا ! » .

غمغمت في ضيق محاولا أن أمنع نفسي من ضربه :

— « لم أعد أعرف ما إذا كنا سنظل هنا أم لا .. كل ما أرجوه هو أن تطبق فاك وتحتفظ بآرائك لنفسك ! » .

— « حسن .. لا داعي لأن نفقد أعصابنا .. إن عائلاتنا لن تلبث أن تلحق بنا .. » .

وعدنا نفكر في هم عن السبيل الأمثل للخروج من هذا المأزق ... وما لبث (مدحت) أن هتف وقد ثارت حماسته :

— « لا بد أن مفاتيح هذا الباب فى مكان ما .. ثم إننا لم نحاول الصعود لسطح البيت فربما تمكنا من طلب الغوث ... » .

— « سيظنوننا أشباحا ويبتعدون مذعورين .. لكن الأمر جدير بالمحاولة .. » .

ثم إننى تذكرت شيئا .. الدرجات !.. لقد حطمتها (شيراز) كى تمنعنا من الصعود لإنقاذ (إلهام) .. فكيف نصعد إذن ؟..

وهنا سمعنا ضحكة (شيراز) الرقيقة ...

رأيناها واقفة على (الدرابزين) فى الطابق العلوى حيث كانت (إلهام) منذ دقائق .. وسمعناها تقول مبتسمة :

— « مأزق شنيع .. أليس كذلك ؟.. إن البيت حصين أكثر مما يبدو فى الواقع ! » .

ومدت إصبعها السبابة والإبهام للأمام وفرقعت بهما :

— « ما هو الحل ؟.. لا حل !.. ستحاولون كثيرا وقليلا لكنكم ستعرفون ألا حل هنالك .. العبوا !.. العبوا .. فهذا يسلينى ! » .

تقدمت فى تؤدة إلى أسفل المكان الذى وقفت فيه .. ورفعت رأسى صائحا ..

— « تغيرت كثيرا يا (شيراز) .. » .

— « ومن لم يتغير ؟ » .

— « كنا نحبك حقا .. » .

— « وبرغم هذا تخليتم عنى .. » .

— « كنا مجبرين .. أقسم لك على هذا .. كنا أطفالا لا نملك خياراتنا .. » .

أشارت نحو (إلهام) فى كبرياء حانق .. وهتفت :

— « على الأقل كانت هذه الشيطانة تملك الخيار .. وقد اختارت .. اختارت الشرّ والحقد .. ولهذا تحتم الانتقام ... » .

— « كانت غيرة أطفال .. » .

— « النتيجة واحدة .. وهى أننى ـ أنا الطفلة البريئة الصغيرة ـ أجبرت على أن أقاسى الوحدة .. وحدة الأشباح المريرة .. الكل يخافون منى .. الكل يتحاشوننى كالوباء ... وبدأ الشرّ يتبلور فى أعماقى ويطفح على وجهى .. أنتم لم تروا وجهى بعد .. لكنكم سترون ما وصل إليه ... » .

— « أتأخذيننا جميعا بجريرتها ؟! » .

— « إنكم أنقذتموها بكامل إرادتكم .. من ثم استحققتم مصيرها .. » .

تقدمت (عبير) لتقف جوارى .. وصاحت محدثة (شيراز) :

— « (شيراز) !.. نحن مستعدون لأن نعود أصدقاءك وأن نحبك كما كان فى الماضى ... » .

ضحكت (شيراز) فى سخرية .. أقسى ضحكة سمعتها فى حياتى :

— « لن يعود الزمان كما كان أبدًا .. أمس كنتم تحبوننى بنزق وبراءة الطفولة ولم تكونوا مضطرين .. أما اليوم فأنتم تخشوننى .. وتحملون تراث البالغين الفاسد ، ثم تقولون لى : لنعد كما كنا ... مستحيل يا صغيرتى .. » .

تقدم (مدحت) إلى الأمام جوارنا .. (كأنها مسرحية سخيفة تقدمها إحدى فرق الأقاليم المسرحية حين يتقدم كل ممثل إلى مقدمة المسرح ليقول عبارة ما) :

— « أيتها الحمقاء !.. لن يلبث ذوونا أن يبحثوا عنا وهم يعرفون أين يجدوننا .. إن زوج (عبير) لعلى استعداد لأن ينسف الباب نسفًا بعد ساعة من الآن .. » .

— « ساعة من الآن ؟ » .

دوى صوت (شيراز) البارد القاسى .. وبتؤدة أردفت ..

— « من قال إننى سأنتظر ساعة كاملة ؟! .. إن المرح سيبدأ الآن حالا ! » .

....

* * *

فى اللحظات التى سبقت ما حدث بعد ذلك كان عقلى يعمل بسرعة جنونية ..

الأسرة مات جميع أفرادها ــ بما فيهم الخدم ــ فى أوائل هذا القرن .. فكيف ماتوا ؟ ولماذا عادوا للظهور بعدها ؟.. الفتاة فى حاجة لأصدقاء .. وهى تعانى حرمان السنين ... لكن لماذا هذه الأيام بالذات ؟.. ولماذا قررت أن تتحول إلى مسخ ؟.. لماذا انتظرت حتى دنونا من سن الكهولة لتطاردنا ..؟ .. ثم ــ السؤال الأهم ــ أين ذهب باقى أفراد الأسرة ؟.. أين الأم والخادم ؟.. إن نجاتنا تكمن فى الإجابة على هذه الأسئلة ..

أشعر بذلك بكل جوارحى ..

وهنا صرخت (عبير) فى هلع كأنها ترى الشيطان :

— « انظروا !.. » .

نظرنا ــ بالطبع ــ إلى حيث أشارت فرأينا ..

رأينا عيونًا حمراء تلمع فى الظلام وسمعنا فحيحًا ..

ولمحنا فى ضوء النهار المتسرب من النافذة المحطمة أشخاصا يتقدمون نحونا ومن الواضح أنهم يريدون شرا ..

ـ « أعوذ بالله ! » .

كذا صاح أحدنا ـ ربما أنا ـ وهو يلتصق بالآخرين محموما ... خمسة أطفال يرتجفون وهم يرون غيلانا تحاصرهم ..

آه لو كان مسدسى معى !..

لن يجدى شيئا مع هذه المسوخ لكنه ـ على الأقل ـ سيجعل نهايتنا مشرقة .. تحسست جيبى بيدى .. و .. غريب هذا ! .. إنه فى جيبى .. ما هذا العبث ؟ ومن الذى ... ؟ ..

صحت فى الآخرين وقد بدأت أفهم ما حدث :

ـ « لحظة يا شباب !.. إن كل هذا ليس حقيقيًا ! » .

نظر لى (مدحت) فى حيرة :

ـ « تعنى .. مثل الأوهام السابقة التى رأيناها ؟ » .

ـ « بل الأمر وهم فى وهم .. الأمر كله هلوسة جماعية نعيشها الآن !.. » ..

إن البيت بالفعل مسكون .. مسكون بطاقة هائلة تجعله يعابثنا .. » .

ـ « و (شيراز) ؟.. وانتقامها ؟ » .

ـ « أعتقد أن (شيراز) وأمها والخادم .. وكل شىء رأيناه وهم لا وجود له إلا فى عقولنا ... » .

صاح (عماد) ولسان حاله يقول إننى جننت أخيرا :

ـ « وهذه الأشياء التى تهاجمنا الآن ؟ » .

صرخت بأعلى صوتى محاولا تحريك هؤلاء الحمقى :

ـ « تماسكوا .. فكروا فى لحظاتكم السعيدة وفى عائلاتكم .. انسوا الفزع .. ولا يفكرن أحدكم إلا فى أصدقائه الآخرين وذكرياتنا المشتركة الحميمة .. تماسكوا !..

« ليمسك كل منكم يد الآخر .. ولا يدع البيت يهزمه .. » .

كان زئير الأشباح يتعالى وهى تقترب .. نكاد نشم رائحة أنفاسها .. العرق يسيل على جباهنا وأيدينا تنزلق .. لكننا نتماسك ... (عبير) تبكى .. و(عماد) يرتجف كالورقة .. منظارى تتدحرج على أنفى لكننى لا أجرؤ على رفعه حتى لا أترك يد (مدحت) .. ويد (إلهام) ..

ـ « رائع يا رفاق !.. استمروا ..!.. هأنتم ترون أن الأشباح لم تستطع عمل شىء .. إن الوهم لا يؤذى .. » .

مرت دقائق عسيرة ..

وفجأة ساد الهدوء .. فتحنا عيوننا ببطء لنجد مدخل البيت والمائدة وكل شيء لكن لا أشباح .. ولم تعد (شيراز) واقفة على (درابزين) السلم ..

ـ « الآن فكوا أيديكم ! » :

وأشعلت سيجارة على حين استرخى الآخرون على الأرض من حولي غير عابئين بالغبار .. كان الفضول يعتصرهم ليفهموا ما حدث ..

ـ « والآن .. هلا فسرت لنا ؟ » .

افترشت الأرض جوارهم ونفثت حلقة من التبغ ..

ـ « قبل أن أتكلم .. هلا نظرتم إلى الباب وأخبرتموني هل هو مفتوح أم مغلق ..؟ وهل درجات السلم مهشمة ؟ » .

ـ « هو مفتوح ..! ودرجات السلم سليمة تماما .. » .

ـ « كما تركناها ؟ » .

ـ « كما تركناها ... » .

ـ « إذن أصغوا لما سأقول ... » .

* * *

١١ ـ الخاتمة ..

في دار (مدحت) جلسنا نرشف الشاي ونتناول طعام الإفطار ، على حين أخذت زوجته تداعب (إلهام) وتسري عنها ...

قلت لهم مفسرا ما كان مني في البيت : إنني بدأت أعتقد أن الأمر كله وهم منذ وجدت المسدس في جيبي برغم أنني لم أجده لحظة الدخول .. فسألت نفسي : أمن الممكن أن يكون المسدس في جيبي طيلة الوقت .. وأنني لم أجده لأنني (توقعت ذلك) ؟.. بمعنى آخر .. هناك قوة ما جعلتني أتخيل اختفاء المسدس برغم أنه كان معي من البداية ...

ثم سألت نفسي .. ما سر عودة (شيراز) لمطاردتنا بعد كل هذه الأعوام ؟..

لماذا نسيتنا ثلاثين عاما ثم عادت تذكرنا ؟.. إن الأمر يبدو متناقضا حتى بمنطق الأشباح .. هل حقا رأينا شبح (شيراز) وأمها أم أننا تخيلنا ذلك ؟..

ثم ـ بمنطق البشر والأشباح ـ هل خطأ (إلهام) القديم يستحق كل هذا العقاب ؟.. لا أظن ..

إذن قصة الشبح الطفل المحروم من الصحبة الآدمية لا تروق لى كثيرًا ولا أعتقد أنها تبرر كل ما حدث ....

إذن .. لماذا لا تكون (شيراز) وأمها وغرام الطفولة و.. و.. كلها خيالات ؟.. مجرد أوهام عشناها بكل تفاصيلها حين أجبرنا الفضول على دخول هذا البيت ؟.. من يدرى ؟.. لربما كان عددنا خمسة لا ستة كما ظننا .. ولربما كنا نلعب المساكة ونثرثر ونتشاجر من أجل لا شىء .. ومع لا أحد ..

لقد صدقت (عبير) حين قالت : إن البيت حىّ ...

هذا أمر لا شك فيه .. وهو المبرر الوحيد لكل ما رأيناه .. كان البيت يحوى طاقة نفسية هائلة قادرة على خلق مئات الرؤى لنراها جميعًا فى نفس الوقت ..، والحقيقة التى غابت عنا هى أن الباب ظل مفتوحًا ولم ينغلق .. لكننا جميعًا حسبنا أنفسنا سجناء ..

البيت جعل أطفالنا يرون (شيراز) وجعلنا نحن أيضًا نراها فى ديارنا ...

لكن (شيراز) لم توجد .. أو ــ على الأقل ــ لم تصر شبحًا ...

وأعتقد كذلك أن البيت هو المسئول الأول عن مقتل الأسرة التى كانت تسكنه قديمًا .. فلربما أغرقهم فى

وهم ما ، لم يفيقوا منه قط .. نحن جميعًا قاسينا الهلاوس البصرية والسمعية وعرفنا كيف تبدو حقيقية ..
(إلهام) قذفت نفسها من فوق الدرابزين لمجرد رؤيتها مسخًا وهميًا .. ونحن حطمنا ظهورنا محاولين اقتحام باب مفتوح من البداية .. وقضينا أسود ساعات حياتنا فى خيالات لا طائل منها ..

لقد نال البيت منا .. فهو بعد كل هذه الأعوام لم يزل طفلًا يعشق اللهو ويهوى أن يتلاعب بالآخرين ..

سألنى (مدحت) وهو ينتزع لفافة تبغ من علبتى :

ــ « وما سر هذه الطاقة الهائلة الكامنة فيه ؟ » .

ــ « لا أدرى .. لكن هذه الأشياء تحدث .. وغالبًا ما يتضح أنه مبنى فوق مقابر قديمة اختلطت أساساته بعظام سكانها أو شىء من هذا القبيل .. » .

ــ « يصعب التأكد من هذه النقطة ... » .

ــ « السؤال الأهم هنا هو : لماذا أراد البيت أن نعود له ؟ .. لا أعتقد أنه اشتاق للعبث .. أعتقد أنه أراد أن يقدم لنا الحل لخلاصه .. إن البيت يريد أن يفنى ونحن فقط نعرف كيف ... » .

ــ « النار ؟ » .

ابتسمت فى ود وأشعلت قداحتى :

— « بالفعل .. النار .. لقد ذابت كل الأوهام بمجرد أن ظهرت النار .. » .

وهذه هى الرسالة التى أراد البيت أن يوصلها لنا حين أغرانا بدخوله .. وحتى لو كان اعتقادنا خاطئا فإننى أعتقد أن هذا البيت المشئوم يجب أن يباد تماما .. من أجلنا ومن أجل أطفال صغار سيدخلونه فى جيل قادم ليلعبوا مع (شيراز) أو واحدة أخرى .... » .

تفكر (مدحت) فى كلماتى برهة .. ثم قرب فمه من أذنى وهمس :

— « ليكن .... ولكن متى ؟ » .

* * *

بعد هذا بيومين أتت النيران على البيت تماما ...

يقول رجال المطافئ إن هذا تم بفعل فاعل تسلل ليلا وسكب جالونات عديدة من (الكيروسين) .. ويقول عابر سبيل إنه شاهد ثلاثة رجال أحدهم نحيل أصلع واثنان متشابهان كالتوائم .. شاهدهم يفتحون البوابة ليلة الحادث ...

لكن — والحق يقال — لم يشعر واحد من أهل (المنصورة) بالحسرة على احتراق هذا البيت الذى يخشاه الجميع ..

حتى مالك البيت — الوريث — وجد أخيرًا الفرصة لبيع الأرض بعد أن يئس تماما من العثور على مشترٍ لهذا البيت ...

فقط يقول الجيران إنهم سمعوا صوتا غريبا كأنه عملاق يئن بينما ألسنة اللهب تتصاعد من البيت المهجور ..

لكنهم لم يعلقوا أهمية على هذا ...

بعد هذا بيومين ودعت الأصدقاء لأعود الى القاهرة ..

سألنى (مدحت) فى قلق :

— « هل تظن أن النار كافية ..؟ » .

بخبث ابتسمت :

— « من يدرى ؟.. على كل حال إذا لم تكن كافية سنعرف ذلك فى القريب العاجل .. وليكونن انتقام البيت رهيبا ! » .

— « إذن .. فلنرحل قبل أن أهشم وجهك ! » .

وهكذا ...

عدت للقاهرة .. عدت بقصة غامضة أخرى أدونها فى كراسة مذكراتى وأحكيها لـ (هويدا) فى ليلة صيف ساحرة ..

لكن الرعب هو قدرى .. وحياتى لا تستقيم بهذه السهولة كما لابد أنكم قد تعودتم ...

كان اللهب ينتظرنى .. ويناديني .. وكان محتمًا أن ألبى نداءه عالمًا أنها قد تكون المرة الأخيرة ..

ولكن هذه قصة أخرى ..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة ١٩٩٣

* * *